فاطمة.. وتر في غمد

ملف خاص عن الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام

بين حوّاء ومريم وفاطمة*

الشيخ محسن أبو الحب •

إنْ قيلَ حَـوّا قلتُ فاطمُ فخرُها ... أوْ قيلَ مريم قلتُ فاطمُ أفضلُ
أفـهَـلْ لِـحَـوّا والــدٌ كَمُحَمدٍّ ... أمْ هلْ لمريمَ مثلُ فاطم أشبُلُ
كـلٌّ لها حـيـنَ الــولادةِ حالةٌ ... فيها عقولُ ذوي البصائرِ تذهلُ
هذي لنخلتِها التجَتْ فَتساقَطَتْ ... رطَـبـاً جَـنـيّـاً فهي مـنـهُ تأكلُ
وضعتْ بعيسى وَهي غير مروعة ... أنّـى وَحارسُها السريُّ الأبسَلُ
وإلى الجدارِ وصَفحةِ البابِ التجَتْ ... بنتُ النبيّ فأسقطتْ ما تحمِلُ
سقطتْ وأسقَطتِ الجنينَ وحولَها ... من كلِّ ذي حَسبٍ لئيم جحفلُ
ولسوفَ تأتي في القيامةِ فاطمٌ ... تَشكُو إلى ربِّ السَّماءِ وَتُعولُ
ولـتـرفَـعَـنَّ جنينَها وَحنينُها ... بشكايةٍ منها الـسَّـمـاءُ تزلزلُ
ربّــاه مـيـراثـي وبَـعـلـي حـقَّـهُ ... غَصبوا، وأبنائي جَميعاً قتّلوا
سبطايَ ذا بالسُّمِّ أمسى قلبُه ... قِطَعاً وهــذا بـالـدمـاءِ يُغسَّلُ

* منتقاة من كتاب (أروع ما قيل في محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته).

الزهراء.. عودة الحلم المشرق*

في ذكرى ميلاد سيدة النساء بكل ما لها من امتداد في تاريخ الدنيا وحضورٍ في خلود الآخرة

الشيخ عبد المجيد فرج الله •

في المدى.. حيثُ تجثمُ الظلماءُ ... والسبات العميق دنياً خواءُ
حُلُمٌ رفَّ في السماء ربيعاً ... أحمديّاً.. وشمسهُ زهراءُ
رائقٌ.. في عيونِهِ همسةُ النو ... رِ، وفيضٌ، ورحمةٌ خضراءُ
في فجاجِ الصخورِ يرسمُ درباً ... للهدى، وهو روضةٌ غنّاءُ
يأخذُ الروحَ في مداهُ لتحيا ... في ربوع الإلهِ كيفَ يشاءُ

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

أي عُلاها العظيمَ، أوقفْ سُرانا ... لحظةً كي يُطِلَّ منك سناءُ
كم مشينا على الجراحِ وهذي الـ ... ـروحُ غضبى، ولم يُنكّسْ لواءُ
وعبرنا التخومَ.. في كلِّ جذْرٍ ... رفَّ منّا حبٌّ.. ورقَّ حِداءُ
وأتيناكَ.. لم نصلْ!.. وجوانا ... يتفشّى لهيبُهُ والرجاءُ
فلماذا؟ والأُمنياتُ عطاشى ... والندى يابسٌ.. وأنتَ الماءُ
وإذا طيفُكَ الرحيمُ تناءى ... ومشاويرُ خطونا عرجاءُ

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

خلف هذا الجحيم شبّتْ رؤاها ... ناعماتٍ يفيضُ منها النقاءُ
هاهنا تُخنَقُ الرئاتُ، وتُمحى ... من وجيبِ القلوبِ تلك الدماءُ
ولديها تحيا أزاهيرُ نبضٍ ... فتّقتها من طُهرِها أنداءُ

* منتقاة من ديوان الشاعر (أناشيد لعيون الورد).

هاهنا حسرةُ الرمادِ تلوّتْ ... في انكساراتها خُطى عمياءُ
ولدى قُدسها حمائمُ نورٍ ... تهبُ الدفء إذ يطولُ الشتاءُ
والنداءات: أقبلوا.. إنّ قلبي ... حين يعوي الهجيرُ ظلٌّ وماءُ
أنا منكمْ.. إليكُمُ.. أنزفُ الجر ... حَ لتحيوا.. ما مسّني إعياءُ
لستُ أرضى إلاّ المودةَ في اللّـ ... ـهِ شراعاً.. حتّى يصحّ الولاءُ

* * * * *

أنا أدري (المأساة) في كلِّ قلْبٍ ... منكُمُ.. ما لجمرِها إطفاءُ
والعيون المسهّداتِ تداعيـ ... ـنَ ذبولاً.. ما زارَها إغفاءُ
وبحبّي أسرجتمُ الليلَ حتّى ... ذهلتْ خَطْرَةٌ.. وذابَ نداءُ
أنا أدري رموشَكم كحّلتها ... بأعاصيرِ وجدِها كربلاءُ
غير أنَّ الذين في آخر الشو ... ط استفزّتْ غرورَهُم كبرياءُ
والذين انزووا، رأوا روعةَ الفجـ ... ـرِ بعينٍ يُغشي رؤاها البكاءُ
حجبوكم عن الأزاهيرِ نشوى ... فأباكم أريجُها الوضّاءُ
يا صحابي يا ساهرينَ حيارى ... لفّعتهم بصمتِها الظلماءُ:
هدأةً.. صحوةً.. كثيرَ خشوع ... لا تُضيّعْ سُراكُمُ الأهواءُ
استقيلوا الحلمَ ـ الربيعَ يُقلْكُمْ ... وأنيبوا إلى سناهُ تُضاؤوا
أُنظروا.. حدّقوا بأهدابِ روحٍ ... لم يُلامسْ رفيفَها الإنطفاءُ
سترونَ النجومَ حبلى بفيضٍ ... الله يجلو بريقَها الإرواءُ

* * * * *

حُلُمٌ في خواطرِ الزمن الغضِّ ... تغنّتْ شوقاً لهُ الأرجاءُ
قد حبانا فجراً يذوبُ نقاءً ... أشرقتْ منهُ أرضُنا والسماءُ

براعة البيان في خطبة الزهراء عليها السلام

أ. م. د. مشكور العوادي •
مركز دراسات الكوفة/ جامعة الكوفة

تمهيد

براعة تمسكت بعترة للحق والصراط والأمين، أكرمها الله هدى بسالةً ومذهباً، علمها بيانه المكين، أكرمها إمامة التطهير والإبلاغ والتنوير، أرسى لها دعائم التأييد والتسديد، لأنها مغوارة على المدى في نصرة التوحيد، لأنها على خطى رسولها الأمين.

إن للبيان فضيلة إلهية سامية جليلة، عليه تدور المعاني في متصرفاتها، فلولاه -كما يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني-: (لم تكن لتتعدى فوائد العلم عالمه ولا صح من العاقل أن يفتق عن أزاهير العقل كمائمه، ولتعطلت قوى الخواطر والأفكار من معانيها، ولما عرف كفر من إيمان وإساءة من إحسان)[1].

لذا كان التعبير والإبانة عن الظّلامة الفاطمية من هذا الباب إذ الداعم لحالتها البيانية في منطقها سليقتها الثابتة، وهي عليها السلام لم تقصد بخطبتها تمدحاً بل كان هدفها مشبعاً بروح التقوى بإحقاق حق وإزهاق باطل وإحياء أمة قد استنامت إلى الذل والخنوع.

والحق إن براعة البيان موهبة تلقائية لأهل البيت عليهم السلام ذلك أن ملكتهم البيانية ذات سلسال منحدر لا انقطاع لجريانه وكأن ملائكة البلاغة تتفوه على أنطقتهم وهم أوعية لها وبذلك يكون مصداق الحفظ الإلهي لآيات القرآن العظيم مكنوناً في صدورهم أولاً وفي

صدور الناس ثانياً لأنهم هم المبلغون وهم الموعـون وهم الصادقـون وهذا يعني أن اسـتيعاب أهـل بيت النبوة للقـرآن تحدر علـى ألسـنتهم بلاغـة رقراقـة وفصاحة تواقة، وهكذا كانوا، وكانت الصديقة الطاهـرة منهم فقد إنصقلت موهبتها أداءً نافذاً وصوراً رائعة نتيجة الظروف الصعبة والمرائس الشديدة في الخطوب والمحن التـي وقفـت عندها عليها السلام، فبدت شـديدة الملاحظـة حاضرة البديهية طلقة اللسـان رابطة الجـأش قادرة على مراعاة مقتضى الحال مؤثرة في السامعين بقوة شخصيتها وآرائها المحكمة[٢].

ولمـا كان هـذا البيـان مشـفوعاً بالشـجاعة الفـذة فإنـه جدير بـأن يوفر أرضية صالحـة لتخليد الخطبـة وإعطائها مائـزاً إضافياً مضيئاً على جبيـن التاريخ. فالحـق خديـن لأهل البيت وهمـا صنوان لا يفترقـان وكلاهما في مواجهة الباطل والدعوة للمظاهرة عليه وزهقه.

إذن فهـذه البراعة البيانيـة والشـجاعة العلويـة صاحبت هذا البيـت النبـوي وأهله على طول الخط حتى يمكـن القول إنها لا يمكـن أن تفارقهـم ولـو فـي أصعـب الخطوب فهـم أهلها وسـدنتها والقـوام عليها وأساتذة تعليمها فمن لم يتخرج عليهم كان فـي طريـق منقوص لأنهم ـ كما يقول السيد الشريف الرضـي ـ: (مصابيح الظلـم وعصم الأمم ومنـار الديـن الواضحة ومثاقيـل الفضل الراجحـة صلى الله عليهـم أجمعين صلاة تكـون إزاءً لفضلهـم ومكافـأةً لعملهم وكفاءً لطيب فرعهم وأصلهم)[٣].

فهـذه فاطمـة بنـت رسـول الله صلى الله عليه وآله وهي بالمسـجد النبوي تقف فذةً أبيّة وقد (جمعـت فأوعت وعرضت صور الجاهلية المظلمـة وإنارتهـا بنور الإسـلام على يد أبيها محمـد بمؤازرة بعلهـا علي وعرفت بمبـادئ الإسـلام وحكم تشـريعاته وان انتظامه لا ينتظم وعقده لا يلتئم إلا بنظام الإمامـة المتمثـل في موطنـه ومعدنه، ثم خاصمـت وحاجّـت وحاكمـت مع رأس الحكم وعنوان السـلطة وجهاً لوجه تتلو آيات ربها البينات وما بلغه أبوها الرسول عن ربه ووبخت وعاتبت أمة الإسـلام من مهاجرين وأنصار)[٤].

إذن كانت خطبتها فـي الأيام الأولى بعـد رحيـل المصطفـى صلى الله عليه وآله إلـى الرفيـق

الأعلى حين سمعت بإجماع الخليفة أبي بكر منعها فدكاً (وفدك) قرية زراعية ذات ثروة كبيرة وهي من غنيمة الفيء التي حصل عليها رسول الله من دون حرب ومن دون مشاركة المسلمين، وذلك حين ارتعب أهل فدك بعد أن قذف الله في قلوبهم ذلك، صالحوا النبي على ما صالحوه منها فكانت خالصة له[٥].

فما ورد في نقول الخطبة المعتبرة أن الزهراء عليها السلام: (لاثت خمارها على رأسها واشتملت بجلبابها وأقبلت في لُمّة من حفدتها ونساء قومها تطأ ذيولها ما تخرم مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وآله)[٦].

يقول الأستاذ محسن المعلم: (ولربما يثير ذلك المشهد الرائع المعبر رقةً في القلوب وحركة في الوجدان ونبضاً في الضمائر وغيرة في النفوس وأناةً في اتخاذ موقف أو تراجعاً عن قرار عاصف.

وفاطمة المصونة طالما لفّتها أستار الصّون المكنون فلا تكاد تقع على شبحها عين فلما تجلت في كوكبتها تجسّد في خلالها أبوها فرمق المسلمون رسول الله بينهم وكأنه ما فارقهم)[٧].

إذن كانت عليها السلام تمهد لمقصودها وتقبُل مطلوبها بما يستولي على مشاعر الناس وإحساساتهم من حركاتها، وسكناتها، وإدلائها، لذا قيل إنها (تفرغ عن لسان أبيها صلى الله عليه وآله) حيث تأثير الحق وغلبة الصدق، فهي كذلك كبعلها الإمام علي عليه السلام عاطفة وعقيدة وخطاباً امتداداً لذلك الحق المؤثر والصدق الغالب، وهنا يقول المرحوم الدكتور صبحي الصالح في مقدمة تحقيقه للنهج: (وأما عاطفة علي فثائرة جياشة تستمد دوافعها من نفسه الغنية بالانفعالات وعقيدته الثابتة على الحق فما تكلم إلا وبه حاجة إلى الكلام وما خطب إلا ولديه باعث على الخطابة)[٨].

ويصف الأستاذ إيليا حاوي ذلك فيقول: (ولئن روّع جنانه فلم يروّع بيانه)[٩]. وهكذا كان من بعده أهل بيته الميامين.

وهذا يؤكد أن الزهراء عليها السلام قد ارتشفت معين البلاغة الثر من هذه المنابع الصافية والنمائر الجارية واقتبست خلقاً قويماً وأدباً رفيعاً من أبيها وبعلها فعندما ألقت خطبتها كانت محكّ الوصل بين هذه المنابع وما أفرزت قريحتها من حجج دامغة وبيانات بالغة في المسجد النبوي، ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الباب أن هناك علاقة متينة بين عصمة الشخص أياً كان والبلاغة في أرقى مستوياتها لأن البلاغة توصيل وإبانة بأرقى المراتب وأعلى المستويات، وهذه العلاقة تنطبق على القديسة الطاهرة بأجلى صورها فكانت خطبتها منبراً بيانياً صارخاً في وجه الظلم والاستلاب لحقوقها المدنية والسياسية.

إن الصراحة هي سلاح الحق ومتاعه إذ يعطيها قوةً دافعة لتبليغ الكلمات وأداء المضمون على أوجز صورة وأحكم أداء وهذه الصراحة أنقع في القلوب وأسمع للآذان لذا تأتت عند البتول الطاهرة من تأوهات قلبها الموجوع وتحسراتها إلى ما آلت إليه الأمة من أوضاع التفكك والانحلال ونسيان الناس لعهد أبيها، ولذا كان صوتها (الحق المعبّر عن التوحيد الخالص والرسالة الخاتمة، والإمامة العادلة، والتشريع القويم، والسياسة الإلهية الحكيمة، ونقد الانحراف عن الجادة المستقيمة والسجل الحافل

بالحقائق والمعارف وصحيفة الإيمان والهدى)[10].

نعم قد أجهش لها القوم بالبكاء فأرتج المجلس: أجهشوا تذكراً لعهد أبيها وقد وسدوه التراب عما قريب.

لقد بدأت سيدة النساء بمحور التوحيد وذلك من خلال الحديث عن النعم الإلهية، فقالت: (الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم والثناء بما قدم من عموم نعم ابتدأها وسبوغ آلاء أسداها وتمام منن أولاها) ثم عرجت على فلسفة الشهادة وهي لباب التوحيد والتصريح بالتسليم لهذا الباب إذ لا إلوهية إلا له ولا قيومية إلا به، فهي تقول: (كلمة جعل الإخلاص تأويلها وضمن القلوب موصولها وأنار في التفكر معقولها).

وبعدها تناولت على وفق سياق كلامي من التوحيد إلى إرسال الرسل، وإرسال الرسل من لوازم التوحيد إذ النبي هادٍ ومبشر ونذير لقوم لا يفقهون. ثم عبوديّة النبي لله سبحانه، فالعبودية كنه الربوبية إذ تستلزم هذه عبداً مطيعاً وربباً آمراً.

أما تمدّحها بشخص الرسول لا من جهة النسب بل من جهة الرسالة النبوية والاصطفاء الإلهي لأمة كانت سادرة في مغاويها.

فقولها: (فأنار الله بأبي محمدﷺ ظلمها). تعني: أن أبي صاحب النور النازل من السماء بذلك الشعشاع الذي أضاء مدلهمات دياجير الجاهلية، وقد استعارت (الظلمة) هنا للجهالة، عندها أحاطت بالدلالة إحاطة متمكنة للتعبير عن المقصود مستشرفة ذلك من اشراقاتها العفوية النقية (ثم قالت: أيها الناس اعلموا أني فاطمة وأبي محمد أقول عوداً وبدواً) هنا تبليغ وتبيين وتنسيب بتحسيب كما عرفهم فيما بعد سيد الشهداء الإمام الحسينعليه السلام نفسه وهم والله عارفوه... إذن هو تقليد بياني واستهلال خطابي نتج أو حصل من إمام المتقين علي بن أبي طالب والإمامين الحسين والسجادعليهما السلام فيما بعد.

وقولهاعليها السلام: (عوداً وبدواً) ليس تفاخراً بل تجرداً عن النسب ولكن إلفاتاً لهم على أنها ابنة من؟ ربيبة من؟ حليلة من؟ حتى يعرفوا أن قولها الصدق حق والحق صدق.

وفي هذه الخطبة من قولها في أبيهاﷺ: (فبلغ الرسالة صادعاً بالنذارة، داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يجف الأصنام وينكث الهام حتى انهزم الجمع وولوا الدبر)

(فالصدع مستعار للجهر والإبانة، والعلاقة هي أن الصدع تنفصل به الأجزاء وتبين مقاطعها وكذلك الإبانة والجهر تتحدد بهما الحقائق وتنكشف الأغراض...)[11].

وينكث الهام، يا لها من صورة بارعة بعد صورة الصدع المتقدمة والمعنى هي طعنه فنكثه والمقصود: قتل رؤساء المشركين وأسيادهم وقمعهم وإذلالهم وقيل: يقصد به إلقاء الأصنام على رؤوسها.

ثم تقولعليه السلام: (وخرست شقائق الشياطين). وهي من الإسناد المجازي الإستعاري، فقد نسب الخرس إلى الشقائق ويقال للخطيب (ذو شقشقة) فإنما يشبه بالفحل، فاحتمال المعنى أن أولياءهم الذين هم أولياء الشيطان قد

خرسوا.

وقولها في الإمام علي عليه السلام: (فلا ينكفئ حتى يطأ جناحها بأخمصه ويخمد لهبها بسيفه مكدوداً في ذات الله).

وهذه صورة رائقة موحية إلى أنه لا يصيب الأرض من باطن القدم عند المشي، باسل مغوار، وهي دلالة على القهر والغلبة على أبلغ وجه، وكذلك إخماد اللهب بماء السيف صورة إستعارية مبدعة.

وقولها عليها السلام: (ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً وأحشمكم فألفاكم غضاباً فوسمتم غير إبلكم ووردتم غير مشربكم).

أي فقد حملكم الشيطان على الغضب فوجدكم مغضبين لغضبه فجعلكم آخذين ما ليس لكم بحق من الخلافة والإمامة وميراث النبوة على نحو الاستعارات والكنايات البارعة[١٢].

كما نلحظ ومضات البيان عند سيدة النساء بإيحاءات الدلالة المصورة عند عرضها لأسرار الأحكام الشرعية وهي تفيض بها فيضاً معنوياً صادقاً في التقاطات ذكية وخلاصات راقية.

من ذلك قولها عليها السلام: (فجعل الله الإيمان تطهيراً من الشرك) وهذا تحصيل حاصل وتوصيل واصل من الإيمان إلى انتفاء الشرك إذ هذا ينفي أو يمحق ذاك.

وقولها عليها السلام: (والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر).

لأن الكبر وسواس شيطاني وهو أبُ العصبيّة والصلاة بمضمونها العبادي ركوع وخشوع وهذه تنافي ذاك.

وقولها عليها السلام: (والزكاة تزكية للنفس ونماءً في الرزق) والزكاة من التطهير سواء كانت في المال أو البدن، والتطهير عملية إخراج الجزء من الكلّ، حتى يتزكى ما يتبقى فينمو ويتيمّن،... فهذا هو الفلسفة من ذاك.

وقولها عليها السلام: (والصيام تثبيتاً للإخلاص) وهي زكاة للجسم فبالصوم تطهر الأجساد من زوائد العادات وخبائث الأطعمة، وهي أيضاً من العبادات المقربة لله تعالى لأنها تضع المؤمن في محك مع حال العوز أو الفقر.

وقولها عليها السلام: (والحج تشييداً للدين) لأنه إرساء ديني وتربية محشرية تفتح الوعي الديني التربوي عند الإنسان كي لا يجدد ذنوبه في العام القابل لأنها قد مسحت له في حجته.

وقولها عليها السلام: (والعدل تنسيقاً للقلوب) العدل أساس مكين في الإسلام والتسليم، فالعدل بالأصالة لله تعالى وبالنيابة للشريعة وبالتنزل للإمام، فهو ينسق ويطهر القلوب لأنه ينزع منها الأدران والإضغان، وبه تطيب الخواطر وتستقر الحقوق في مواقعها فلا ظالم ولا مظلوم تحت ظلّ الحكم الإسلامي.

وقولها عليها السلام: (وطاعتنا نظاماً للملة).

إن فلسفة الولاء لأهل البيت عليهم السلام والانتماء الحقيقي لأئمتهم بتوليهم والتبرىء من أعدائهم.

وهنا تشير الصديقة الطاهرة عليها السلام إلى هذا الركن من الولاء والحب والانتماء لأنهم بالمنظار الفاطمي حبلُ الله المتين الموصولة به نفوس المؤمنين بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها وهي هنا بموقع المرشد والموجه لتدليل الناس على التمسك بهذا الحبل.

إذن البراعة البيانية منطوية تحت ثورة

الإصلاح، ومن هذه وتلك فإن فاطمة الزهراء عليها السلام قبس رسالي ضيعه التائهون في الظلمات، وتركه الحائدون عن مجال الحق وبتضيعهم وتركهم: أصبحوا بعد حين مضغة لكل لائك تنالهم الأسقام والأخطار.

وهنا يقول الأستاذ محسن المعلم: (ولو سعد طالع الأمة لأمدتهم فاطمة بنت محمد بعطاء من سنخ عطاء قرآن ربها، وجوامع كلم أبيها، ولشرعت لهم نهجاً كنهج كفئها علي، ولأسهمت في تقديم نماذج وقدوات صالحات للمجتمع كما قدمت أنموذجها الأمثل الحوراء زينب)[١٢].

وخلاصة ما تقدم: فإن هذه الفراعة من تلك الأصالة، وهذا الغصن الرطيب من تلك الشجرة الباسقة فما تعطر في الفرع جارٍ من الأصل ولا مندوحة في الاتصال والتواصل.

ففاطمة الصديقة الطاهرة تلميذة مدرسة الوصي وابنة الرسول الأمين وزوج إمام المتقين، أو بنسق قدسي آخر، كرامة محمدية، وحشمة هاشمية، وعزّة طالبية.

نعم، فقد أسدلت دون فمها كشحاً وهي تخطب من وراء ستار تتفوه بالكلم الطيب والقوم عنها في شرود وذهول والقلوب في اكنة والآذان منهم غير مصغية، لتبقى صرخة في جبين التاريخ لمصلح فريد من نوعه كما ضيعت الأمة حق زوجها وولديها فيما بعد.

وعليه فالظلامة الفاطمية ممتدة لم تقتصر على حقها المدني والسياسي بل تطاولت إلى كل ما يمت إليها بنسب وسبب، فزوجها المذبوح في المحراب وولداها ما بين مسموم ومذبوح على التراب وابنتها العقيلة الحوراء شريدة الأقطار وطليبة الطغاة الأمويين.

ومن هنا فكل من اتصل بها فقد مسته الظلامة الفاطمية هذا من الباب الأسود للتاريخ أما الباب المشرق منه فقد أخذوا من الصديقة وأبيها وبعلها شعشاع الهداية والنور السماوي بذلاقة لسان وقدرة بيان فكان حسيناً مفلقاً في خطابه يوم الطفوف وكانت زينب وما أبلغها في إيوان الطاغية يزيد، وكان حسناً، وعلي بن الحسين وفاطمة بنت الحسين، فهؤلاء الطاهرون المطهرون لم يتكلفوا البلاغة تكلفاً ولم يتأولوها تأولاً بل كانت سليقة جارية لهم وخصلة معجونة بإيمانهم لا تنفك عنهم وإن لم يطلبوها ■

---

(١) كتاب أسرار البلاغة، محمود محمد شاكر، ص:٣-٤.
(٢) ينظر: فن الخطابة وتطوره عند العرب، ص:١٧.
(٣) نهج البلاغة شرح الشيخ محمد عبده مقدمة السيد الشريف، ص:١٢.
(٤) فاطمة صوت الحق الإلهي، ص:٢٠.
(٥) ينظر: فاطمة صوت الحق الإلهي، ص:١٩٥.
(٦) من فقه الزهراء، للمرجع الأعلى السيد محمد الحسيني الشيرازي، ١٣/٢.
(٧) فاطمة صوت الحق الإلهي، ص:١٧. وينظر: (فدك في التاريخ) للشهيد الصدر الأول، ص:٣١.
(٨) مقدمة تحقيقه نهج البلاغة، ص:١٦.
(٩) فن الخطابة وتطوره عند العرب، ص:١٢٨.
(١٠) فاطمة صوت الحق الإلهي، ص:١٩٣.
(١١) التصوير البياني لأبي موسى(الدكتور)، ص:٢١٢.
(١٢) ينظر: من فقه الزهراء، ٢/ هامش ص:٢٨، ٢٦، ٢٣.
(١٣) فاطمة صوت الحق الإلهي، ص:١٩٤.

عقدة القرب النسبي وانهزامية الأنظمة الظالمة حيال ذرية السيدة فاطمة عليها السلام

السيد محمد علي الحلو •
أستاذ في الحوزة العلمية

تمهيد

في العصر العباسي الأول يأخذ الصراع العباسي العلوي منحى آخر، ويتجه اتجاهاً خطيراً حيال نظرية النسب والأقربية من رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ شعر النظام العباسي إبّان صراعه مع العلويين بخطورة معركة خاسرة يخرج منها مهزوماً مولدة في الوقت نفسه عقدة (الدونية) في العنصر العباسي قبالة العنصر العلوي الذي ما فتئ يفتخر بقربه من رسول الله صلى الله عليه وآله، مما دعى هارون الرشيد أن يقف على أمر تقديم آل علي على غيرهم في نسبهم لرسول الله صلى الله عليه وآله.

وفي رواية العبدي تنعكس صراعات العباسيين مع أبناء عمومتهم العلويين بل تعكس محنة الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام وهو في خضم الاضطراب العباسي الذي خلقته عقدة النسب العلوي.

فقد روى أبو أحمد هاني بن محمد العبدي قال: حدثني أبو محمد رفعه إلى موسى بن جعفر عليهما السلام قال: لما أدخلت على الرشيد سلّمت عليه فرد عليَّ السلام ثم قال: يا موسى بن جعفر خليفتان يجبى إليهما الخراج؟

فقلت: يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن تبوء بإثمي وأثمك، فتقبل الباطل من أعدائنا علينا، فقد علمت بأنه قد كذب علينا منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وآله، بما علم ذلك عندك فان رأيت بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله أن تأذن لي أحدثك بحديث أخبرني به أبي عن آبائه عن جدي رسول الله صلى الله عليه وآله؟

فقال: قد أذنت لك.

فقلت: أخبرني أبي عن آبائه عن جدي رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: أن الرحم إذا مست الرحم تحركت واضطربت فناولني يدك جعلني الله فداك. [وهنا لابد من التوقف في هذه العبارة، فقد حرص أهل البيت عليهم السلام على استمرارية العلاقة الطيبة بين البيتين العلوي والعباسي تحاشياً للمصادمات التي تأتي على حياتهم الشريفة وشيعتهم كذلك، والنظام العباسي يتحين فرص التصفية للانقضاض على الوجود العلوي الذي يمثله أئمة أهل البيت عليهم السلام، لذا فقد حاول الأئمة عليهم السلام دفع هذا الضرر الذي يتعمده العباسيون في الوقيعة بهم، والإطاحة بوجودهم والقضاء على شيعتهم، لذا كانت مندوحة التقية لدى الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام تدفعه بأن يستميل قلب الرشيد بهذه الألفاظ (جعلني الله فداك ويا أمير المؤمنين، وغيرها من الخطابات التي تطمئن العباسيين الذين ينظرون إلى العلويين بأنهم المعارضة المهددة لوجودهم وأئمة آل البيت عليهم السلام هم عنوان المعارضة الذي يتوجس من حضورها النظام في أوساط الأمة بكل مشاعرها ووجدانها] ولنكمل الحديث:

قال: - أي الرشيد مخاطباً موسى بن جعفر - أدن مني؛ فدنوت منه، فأخذ بيدي ثم جذبني إلى نفسه وعانقني طويلاً ثم تركني وقال: (أجلس يا موسى؛ فليس عليك بأس، فنظرت إليه فإذا به قد دمعت عيناه، فرجعت إليّ نفسي فقال: صدقت وصدق جدك صلى الله عليه وآله لقد تحرك دمي واضطربت عروقي حتى غلبت عليّ الرقة وفاضت عيناي، وأنا أريد أن أسألك عن أشياء تتلجلج في صدري منذ حين لم أسأل عنها أحداً، فإن أنت أجبتني عنها خليت عنك ولم أقبل قول أحد فيك، وقد بلغني أنك لم تكذب قط فأصدقني فيما أسألك ما في قلبي.

فقلت: ما كان علمه عندي فأنيّ مخبرك به أن أنت أمنتني.

قال: لك الأمان إن صدقتني وتركت التقية التي تعرفون بها بني فاطمة،

الموضع الذي ولدت فيه فاطمة الزهراء عليها السلام

فقلت: ليسأل أمير المؤمنين عما يشاء.

قال: أخبرني لم فضلتم علينا ونحن وأنتم من شجرة واحدة، و بنو عبد المطلب ونحن وأنتم واحد إنا بنو عباس وأنتم ولد أبي طالب، وهما عما رسول اللهﷺ وقرابتهما منه سواء؟

فقلت: نحن أقرب قال: وكيف ذاك؟

قلت: لأن عبد الله وأبا طالب لأب وأم وأبوكم العباس ليس هو من أم عبد الله ولا من أم أبي طالب.

قال: فلم ادعيتم أنكم ورثتم النبيﷺ والعم يحجب ابن العم، وقبض رسول اللهﷺ وقد توفي أبو طالب قبله والعباس عمه حي؟

فقلت له: إن رأى أمير المؤمنين أن يعفيني عن هذه المسألة ويسألني عن كل باب سواه يريده. فقال: لا، أو تجيب.

فقلت: فآمني. قال: آمنتك قبل الكلام.

فقلت: إن في قول علي بن أبي طالب عليه السلام أنه ليس مع ولد الصلب ذكراً كان أو أنثى لأحدكم إلا الأبوين والزوج والزوجة، ولم يثبت للعم مع ولد الصلب ميراث، ولم ينطق به الكتاب العزيز والسنة إلا أن تيماً وعدياً وبني أمية قالوا: (العم والد) رأياً منهم بلا حقيقة ولا أثر عن رسول اللهﷺ ومن قال بقول علي من العلماء قضاياهم خلاف قضايا هؤلاء هذا نوح بن دراج يقول في هذه المسألة بقول علي وقد حكم به، وقد ولاه أمير المؤمنين المصرين الكوفة والبصرة وقضى به، فانهي إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأمر بإحضاره وإحضار من يقول بخلاف قوله، منهم سفيان الثوري وإبراهيم المازني والفضيل بن غياض، فشهدوا أنه قول علي عليه السلام في هذه المسألة. فقال لهم فيما بلغني بعض العلماء من أهل الحجاز: لم لا تفتون وقد قضى نوح بن دراج؟

فقالوا: جسر وجينا (كذا) وقد أمضى أمير المؤمنين قضيته يقول قدماء العامة عن النبيﷺ أنه قال: (أقضاكم علي) وكذلك عمر بن الخطاب قال: (علي أقضانا) وهو اسم جامع، لأن جميع ما مدح به النبيﷺ أصحابه من القرابة والفرائض والعلم داخل في القضاء.

قال: زدني يا موسى: قلت: المجالس بالأمانات وخاصة مجلسك. فقال: لا بأس به قلت: إن النبي لم يورث من لم يهاجر، ولا أثبت له ولاية حتى يهاجر. فقال: ما حجتك فيه؟

قلت: قول الله تبارك وتعالى: (والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا) وان عمي العباس لم يهاجر.

فقال لي: إني أسألك يا موسى هل أفتيت بذلك أحداً من أعدائنا، أو أخبرت أحداً من الفقهاء في هذه المسألة بشيء؟ فقلت: اللهم لا وما سألني عنها إلا أمير المؤمنين.

ثم قال لي: جوزتم للعامة والخاصة أن ينسبوكم إلى رسول اللهﷺ ويقولوا لكم يا بني رسول الله وأنتم بنو علي وإنما ينسب المرء إلى أبيه، وفاطمة إنما هي وعاء والنبي جدكم من قبل أمكم.

فقلت: يا أمير المؤمنين لو أن النبي نشر فخطب إليك كريمتك هل كنت تجيبه؟ قال: سبحان الله! ولم لا أجيبه، بل أفتخر على العرب والعجم وقريش بذلك. فقلت له: لكنه لا يخطب إليَّ ولا أزوجه فقال: ولم؟ فقلت: لأنه ولدني ولم يلدك فقال: أحسنت يا موسى: ثم قال كيف قلتم إنا ذرية النبي والنبي لم يعقب وإنما العقب الذكر لا الأنثى، وانتم ولد الابنة ولا يكون ولدها عقباً له. فقلت: أسألك بحق القرابة والقبر ومن فيه، إلا أعفيتني عن هذه المسألة.

فقال: لا، أو تخبرني بحجتكم فيه يا ولد علي، وأنت يا موسى يعسوبهم وإمام زمانهم، كذا أنهي إليّ، ولست أعفيك في كل ما أسألك عنه حتى تأتيني فيه بحجة من كتاب الله، وأنتم تدعون معاشر ولد علي أنه لا يسقط عنكم منه شيء ألف ولا واو إلا تأويله عنكم، واحتججتم بقوله تعالى: (ما فرطنا في الكتاب من شيء) واستغنيتم عن رأي العلماء وقياسهم.

فقلت: تأذن لي في الجواب؟ قال: هات.

فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم (ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى و الياس كل من الصالحين) من أبو عيسى يا أمير المؤمنين؟ فقال: ليس لعيسى أب.

فقلت: إنما ألحقناه بذراري الأنبياءعليهم السلام من طريق مريمعليها السلام وكذلك ألحقنا بذراري النبيﷺ من قبل أمنا فاطمة، أزيدك يا أمير المؤمنين؟ قال: هات.

قلت: قول الله عز وجل: (فمن حاجتك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين).

ولم يدع أحد أنه أدخلهﷺ تحت الكساء عند المباهلة النصارى إلا علي بن أبي طالبعليه السلام وفاطمة والحسن والحسين أبناؤنا الحسن والحسين ونساؤنا فاطمة، وأنفسنا علي بن أبي طالبعليه السلام على أن العلماء قد أجمعوا على أن جبرائيل قال يوم أحد: (يا محمد إن هذه لهي المواساة من علي)، قال: (لأنه مني وأنا منه).

فقال جبرائيل: (وأنا منكما يا رسول الله) ثم قال: (لا سيف إلا ذو الفقار لا فتى إلا علي) فكان كما مدح الله عز وجل به خليلهعليه السلام إذ يقول: (قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) إنا نفتخر بقول جبرائيل أنه منا فقال: أحسنت يا موسى! ارفع إلينا حوائجك.. إلى آخر الرواية[1].

ولم تكن هذه الرواية الوحيدة في هذا المضمار، فان هناك زخماً من هذه

الروايات تشير إلى حالة الاضطراب والتوجس الذي يراود الحاكم العباسي في هذا الشأن، فإن تهديداً خفياً ينساب إلى مراكز النظام يشير إلى أحقية بني فاطمة بخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله، وتأكيد العباسيين على مسألة القرب النسبي من النبي تتعلق بفلسفة النظام والحكم الإسلامي الذي يؤكد على أن الأولوية في الخلافة هي للأقربين دون الأبعدين عن النبي وهي إيديولوجية الثورة العباسية التي أطاحت بالنظام الأموي بحجة أن الأمويين هم الأباعد الذين لا يرثون النبي ولا يستحقون خلافته.

فالرواية السالفة تكشف عن الهواجس التي يحملها العباسيون إزاء عقدة النسب القريب، ومحاولة الرشيد في إيجاد مخرج من تلك العقدة دعته أن يستعين بالإمام موسى بن جعفر ليوقفه على الأمر وحقيقة الالتباس المرتكز في ذهنية الرشيد وهو أمر سيجد فيه الرشيد قناعته الشخصية لكن بخفايا النفس المتمردة على الواقع والمعاندة للبديهيات بنعرة شديدة وبدواعي الحسد والتنافس، وجعل الإمام عليه السلام يوقفه على أدلة قرآنية لا يمكن للرشيد ولغيره المناقشة فيما أورده والالتفاف عليه.

ولعلنا سنقف على كثير من الحقائق والحجج التي قدمتها الرواية كمشهد للعلاقة القلقة بين العباسيين وبين أئمة أهل البيت عليهم السلام.

أولاً: حاول الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام أن يخفف من قلق الرشيد وأن يمتص حالة النقمة والتراكم العدائي التقليدي الذي هيمن على سلوكية الرشيد وذلك بعد أن سمع من الإمام الكاظم عليه السلام قول رسول الله صلى الله عليه وآله: (إن الرحم إذا مست الرحم تحركت واضطربت) فكانت هذه القضية محاولة تطمين وتهدئة من روع الرشيد الذي يعيش الصراع النفسي وتجاذبات الهواجس، وبالفعل أحس الرشيد بحالة الاطمئنان والخشوع أمام شخصية الإمام الكاظم التي كان يتصورها الرشيد أنها الشخصية المتحدية له، مما دعاه إلى المعانقة طويلاً وبكاؤه كاشف عن حالة الإسقاط النفسي الذاتي التي تحمله خفاياه المتوترة ضد الإمام عليه السلام.

ثانياً: كان الإمام عليه السلام يقدّم الأدلة القرآنية لتعزيز رؤية المدرسة الإمامية في القرب النسبي، ولا يمكن للرشيد أن يتجاهل هذه الحقائق القرآنية بأدنى اعتراض.

ثالثاً: إن مسألة عدم قرب العباسيين للنبي صلى الله عليه وآله تتمحور بفلسفة نبوة البيتين لشقيقين ولدا من عبد المطلب إلا أن خصوصية القرب والبعد تحددها مسألة درجة رابطة الأشقاء بين أبي طالب وعبد الله من جهة، وبين العباس وعبد الله من جهة أخرى، فأبو طالب جد العلويين شقيق عبد الله والد النبي صلى الله عليه وآله من أم وأب، والعباس جد العباسيين شقيق عبد الله من أب فقط دون الأم ومن المعلوم أن الأولاد الصلبيين سيكونون أقرب من العم غير الشقيق لأبوين وسيمنعانه الإرث بعد ذلك، فضلاً عن كون المحبة تتركز في جانب الشقيق من الأبوين دون الشقيق من الأب فقط وهي قضية فطرية بديهية، وإشارة الإمام إلى هذه الحقيقة الفطرية والقضية الشرعية أوجب على الرشيد التسليم لدعوى

القرب النسبي للعلويين من رسول اللهﷺ.

رابعاً: إن الهجرة معيار المواطنة الصالحة في دولة النبيﷺ وبمعنى آخر إن الإيمان تُقاس درجته بمدى ما يبذله المؤمن من تضحيات مادية أو بدنية، والهجرة هي أرقى ما يصل إليه المؤمن من البذل في سبيل رسالته ودينه والتضحية من أجل نبيهﷺ لذا فقد كانت الهجرة سبباً من أسباب حجب الميراث لقوله تعالى: (...وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا...) ومن الضروري أن تكوّن هذه الآية قد حجبت العباس ـ جد العباسيين ـ من الإرث والظاهر أن ذلك إشارة إلى ارثه من النبيﷺ وهذا يعني بُعد العباس ليس في النسب فقط بل حتى في السبب كذلك وهو ولاية الإيمان والهجرة، وهو أمر أذعن له الرشيد حين وعاه وسلم له ووجد أن ذلك من أقوى الحجج في القرب والبعد النسبيين التي يتمسك بها آل علي ويفخرون بها على غيرهم.

خامساً: أن حجة عدم جواز زواج النبيﷺ من آل علي ـ على فرض نشره ورجعته كما في الرواية ـ وجواز زواجه من بني العباس لهو أمرٌ فاصل في النزاع النسبي الذي تزعمه العباسيون ضد آل علي، والعباسيون لم يصمدوا أمام هذه الحجة التي أقر بها الرشيد دون أدنى ريب أو تشكيك.

سادساً: أن قوله تعالى: (...وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنْ الصَّالِحِينَ) يقتضي السؤال عن إمكانية انتساب عيسىعليه السلام إلى إبراهيم عن طريق أمه مريم، وهو ذاته يتيح لآل علي الانتساب إلى النبيﷺ عن طريق أمهم فاطمة، ولا أظن أن تلك الحجة سيقف أحدٌ أمامها دون الإذعان والتسليم لصحة الانتساب والقرب النبوي لآل عليعليه السلام ولم تكن هذه الأدلة ببعيدة عن آل علي وعن شيعتهم كذلك، فإن أتباع أهل البيتعليهم السلام وجدوا أنفسهم مضطرين أن يقدّموا أدلتهم في إثبات القرب النسبي حتى لو كلف ذلك حياتهم.

ولقصة يحيى بن معمر ومحاججته الحجاج بن يوسف في قوله تعالى: (... وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنْ الصَّالِحِينَ)، فسأله من أب عيسى فقال الحجاج ليس له أب فقال فكيف ألحقناه بإبراهيم سوى عن طريق الأم؟ مما دعى الحجاج أن يتراجع عن إصراره على قتل يحيى بن معمر ليبطل بذلك حجة الشيعة في القرب النسبي لأئمتهم من رسول اللهﷺ ولم يعد هذا

الصراع الفكري على مستوى المناظرة والمحاججة فحسب بل دفع ذلك أن يتخذ العباسيون إجراءات احترازية للتخفيف عن هذه العقدة التي أربكتهم ودعتهم يشعرون بالنقص المحبط لكثير من آمالهم، ويجدون أن الأمر يدور على أساس ما تسالم لدى الناس وارتكزت عليه أذهانهم وهو القرب النسبي لرسول اللهﷺ الذي يستحق به المؤهل لصفات خاصة خلافته، وإذا كان العباسيون لا يمتلكون ما يمتلكه آل علي من التقدم في الشأن العلمي فضلاً عن حياة الزهد التي تشوق الناس إلى معايشتها بعد فقدها إبّان العهدين الأموي والعباسي وكثير من مؤهلات القيادة التي تمتع بها آل البيتعليهم السلام لتجعلها الأمة سبباً مهماً في التقدم والتصدي للأمر دون غيرهم، وهو الأمر الذي دعى العباسيين أن يرفعوا شعار القرب النسبي إبّان الصدر الأول لخلافتهم فكان مؤسس (العملية النسبية الجديدة) هو أبو جعفر المنصور الذي شعر بمضايقة النسب العلوي الممتاز وقد داهمه محاصراً لكل طموحاته،مما حدى بالمنصور أن يصادر حديث سفينة نوح مثلاً لصالحه، قد روى المنصور أنه حدثه أبوه عن أبيه قال: قال النبيﷺ مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركب فيها نجا ومن تأخر عنها هلك[٢] وقد علقنا على هذه الرواية في تاريخ الحديث النبوي بقولنا: (وهو حديث صحيح أتفق عليه الفريقان، إلا أن الخليفة العباسي عمم رواية الحديث وأكدها على لسانه مستفيداً من علقة النسب برسول اللهﷺ وبهذا سيحصل العباسي على امتيازات جميع حقوق آل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس، والذي يعني عصمة من أذهب عنه الرجس، أي أن الخليفة سيحصل على حصانته التي من خلالها سيبرر انتهاكاته، فضلاً عن أن استخدام المصطلح سيؤدي إلى الاضطراب في مفهوم أهل البيت، وسيقحم في المصطلح الذي يعد قوة حقيقية فعالة بيد المعارضة العلوية التي تهدد كيانات سياسية وغير سياسية، لذا حاولت المرحلة التدوينية العباسية من التأكيد على الرؤية النسبية الجديدة، مخالفة بذلك نص الكتاب الكريم الذي خصص آل البيت بالنبيﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسينعليهم السلام ، فمحاولة إقحام

عموم بني هاشم ضمن الآية الكريمة المخصصة بأحاديث نبوية متواترة بين الفريقين خصصت عمومية المصطلح، إذ تخصيص الكتاب بالسنة القطيعة أمر يتسالم عليه الأصوليون، فظواهر الكتاب حجة، إلا أحجيتها ليست مطلقة، ففي الكتاب من المحكم والمتشابه، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، مالا تناله عقول المكلفين إلا بقرينة مفسرة للمعنى أو صارفة للظهور واهم قرينة يمكن فيها معرفة ظواهر الكتاب هي السنة القطيعة وبما أن الحديث الذي حدد آل البيت قطعي الصدور لتواتره بين الفريقين، فإن آية التطهير مخصصة بالنبي صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ولا معنى لإقحام غيرهم في مفهوم الآية الكريمة[٣].

وقد أوغل العباسيون في محاولة فاشلة لتعزيز رؤية القرب النسبي للعباسيين من النبي صلى الله عليه وآله وحاولوا استخدام مصطلح أهل البيت لتداوله في سوق غير رائجة لمثل هذه المحاولات العقيمة مما دعى الناس أن يتندروا حيال هذه المحاولة البائسة فقد أخرج الأصمعي قال: لقي المنصور إعرابياً بالشام فقال: احمد الله يا إعرابي الذي رفع عنكم الطاعون بولايتنا أهل البيت.

فقال: إن الله لا يجمع علينا حشفاً وسوء كيل، ولايتكم والطاعون[٤].

وهكذا تتزايد نقمة العامة من دعاوى النسب العباسي بقدر ما يتزايد العباسيون في نقمتهم على آل البيت أصحاب النسب القريب.

ولم تكن دعوى القرب النسبي قد أخذت مداها المعارض إبّان عهدي الأمويين والعباسيين فلقد كانت تؤرق رجال السقيفة حين تصدى الحسين بن علي لعمر بن الخطاب وهو على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله حيث كان يقول في خطبته أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم فقال له الحسين عليه السلام من ناحية المسجد: انزل أيها الكذاب عن منبر أبي رسول الله لا منبر أبيك.

فقال عمر: يا حسين من أنكر حق أبيك فعليه لعنة الله أمرنا الناس فتأمرنا ولو أمروا أباك لأطعنا[٥]. وهي الرصاصة الأولى التي تطلق على المستوى الرسمي المعارض ضد نظام السقيفة، ولعلها المحاولة المبكرة في إفشال مشروع السقيفة بسلاح القرب النسبي الذي بات يهدد كل المدعيات ولعلك تجد ضعف الخليفة الثاني في مواجهة هذه الدعوى التي أمر بها هو بعد ما ارتكز لدى الجميع صحة الدليل وقطعية الدعوى.

وهكذا تبقى مسألة القرب النسبي من أخطر الوثائق التي تدين الأنظمة الحاكمة والتي قفزت على الأحداث لتصل إلى السلطة بدعاوى فارغة غير رصينة، وفي المقابل يبقى أصحاب الحق ذوو النسب النبوي العريق يتمتعون بأحقية المقام وقداسة الرابطة دون أدنى منازع ■

---

(١) الاحتجاج للطبرسي، ج١ ص٣٨٩.
(٢) تاريخ الخلفاء، ص٢٥٢.
(٣) تاريخ الحديث النبوي بين سلطة التحرر ونص السلطة، ص٢٨٣ السيد محمد علي الحلو.
(٤) تاريخ الخلق، ص٢٤٧.
(٥) الاحتجاج ج٢ ص٣٩٢.

قراءة نقدية

في رثائية الشيخ حبيب شعبان في ذكرى فاطمة الزهراء عليها السلام

د. حسن الخاقاني •
كلية الآداب/ جامعة الكوفة

الشاعر

ينابيع

هو الشيخ حبيب بن الحاج مهدي بن الحاج محمد بن آل شعبان النجفي.

ولد في حدود سنة (١٢٩٠هـ) في النجف وتوفي في الهند في بلدة رامبور سنة (١٣٣٦هـ) ودفن فيها.

وآل شعبان من البيوت القديمة في النجف، وهم تجار بزازون، وحدث جماعة من شيوخهم أن أصلهم يرجع إلى الشعبانيين المذكورين في كتب الأنساب العربية، بطن من حمير القحطانية، واشتهر جماعة من أفراد هذه الأسرة بالتجارة وسعة الحال، ولم ينبغ من رجالها أحد في فضل أو أدب قديماً وحديثاً سوى صاحب الترجمة، هذا بحسب ما ذكره (محمد علي اليعقوبي) في جريدة (الهاتف) النجفية.

كان أبوه بزازاً فمالت نفسه إلى طلب العلم، فاشتغل به في درس وتأدب في النجف، كان فاضلاً كاملاً شاعراً أديباً ذا أخلاق فاضلة،

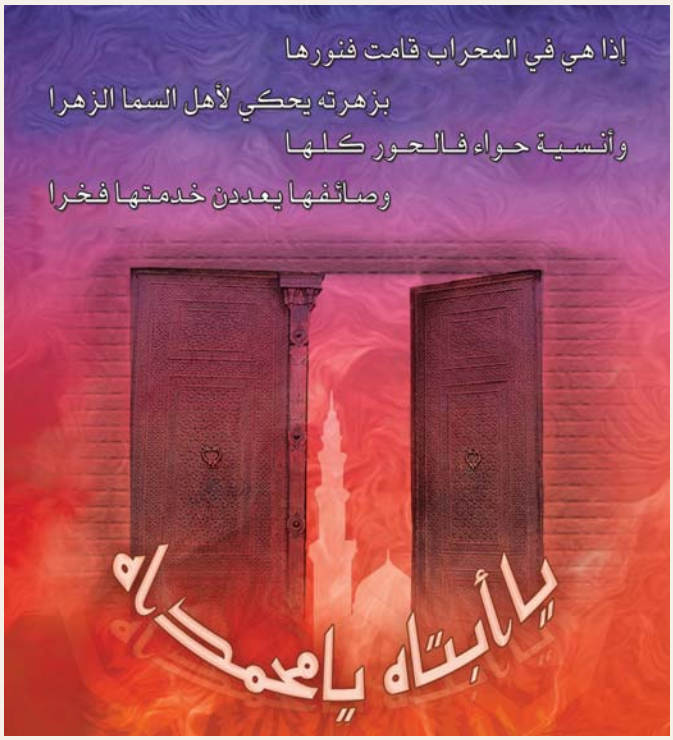

انتقل إلى كربلاء فقرأ على السيد محمد باقر الطباطبائي في الفقه مدة، وكان من أخص ملازميه إلى أن وقع بينهما فتور ففارق كربلاء لإباء فيه وشهامة وعزة نفس حتى ورد البصرة فركب البحر منها إلى الهند وذلك سنة (١٣٢٥هـ) وانقطعت أخباره إلى سنة (١٣٣٦هـ) فوردت كتب من (رامبور) تنبئ بوفاته هناك، وعلم بعد ذلك أنه حاز منزلة سامية عند أهلها وكان من مراجع الدين.

له شعر كثير لم يجمع في ديوان، وسره أنه لم ينبغ من هذه الأسرة على سعتها أديب غيره يعنى بجمع شعره، ولأنه أيضاً شغل بالغربة وفراق الأهل. ذكره جماعة من الأدباء والمؤرخين في مؤلفاتهم منهم (السماوي) في (الطليعة ص٥٨)، و(الشيخ النقدي) في (الروض النضير ص٢٠٨)، وغيرهم.

في إشكالية التاريخ والأدب

يثير الأدب الذي يستند إلى الوقائع التاريخية، أو يهتم بعرضها، إشكالية فكرية في العرض والتلقي رفضاً أو قبولاً، وذلك بأن التاريخ هو جملة من الوقائع أو الأحداث التي قام بها أشخاص في ظرف زماني معين، وتحت أثر ذلك الظرف، وهو ما يجعل بعض الملابسات تعلو على الواقعة نفسها فتتغيب الظروف الموضوعية الدافعة لهان أو يساء فهمها في أقل تقدير.

يجري هذا في الأحداث التاريخية عامة، ولكنه يأخذ بعداً جدلياً، قد يصبح عقيدياً أحياناً، إذا اتصلت تلك الأحداث بمفردات الاستجابة الدينية الواردة عبر التاريخ، وهذا ما نجده واضحاً في الأدب الذي يقارب أحداثاً تاريخية أو بعض شخصياتها، لها صلة أساس بالدين الإسلامي، والمذهب الشيعي منه على وجه التحديد، وهو ما يقع في هذا النص الذي بين يدي التحليل، فهو ف حدود التصدي لعرض واحدة من أهم شخصيات البيت النبوي الشريف، تلك هي فاطمة الزهراء عليها السلام بنت النبي الكريم صلى الله عليه وآله، وزوج ابن عمه المرتضى عليه السلام وأم أبنائه الأئمة الكرام عليهم السلام. فهي أثمن واسطة لأثمن عقد خلقه الله، وأحبه إليه.

اكتسبت من سمات الروحية والإنسانية ما فاقت به أهل الأرض والسماء، حين عاشت في كنف أكرم أسرة، الأب نبي، والأم صديقة، والبعل وصي، والأبناء أئمة هداة، وهي بين ذلك كله تتوسط ببريقها السماوي فلا يكاد يحيط بها الوصف.

غير أن ما كان يطغى على كل ذلك ويدفعه عن الواجهة تلك الواقعة التاريخية الفريدة التي حصلت بعد وفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وهي في عمر الزمن لا تكاد تتعدى بضعة أيام، ولا تكاد تمضي بضعة شهور حتى توفيت الصديقة الطاهرة عليها السلام، فأحدث هذا انقلاباً في التوازن على مستوى التناول الشعري المستند إلى السند التاريخي، ليكون التركيز على الأحزان والآلام التي تبعت هذه الواقعة، ولتغيب بعد ذلك، حقبة طويلة من حياة الصديقة، وكم هائل من سماتها الروحية الإنسانية الصادقة التي لا يكاد المرء يجد لها نظيراً في الخلق، وهذا هو الشأن في هذه القصيدة، إذ هي تظهر هذا الخلل في التوازن من حيث المساحة التي تتحرك عليهما كل من السمتين، إذ الغلبة واضحة لمقولة الحزن والأسى، والسرد واضح في تتبع مقدمات الحدث التاريخي وتوابعه، بدقة وتصميم عاليين.

إن الاهتمام بسرد الحدث التاريخي في الشعر، هو إعادة سرد للحدث لأن الحدث مجاله التاريخ وليس الشعر يعد خللاً واضحاً في النص والقدرة على الارتقاء به إذ تفقد الشاعرية أبرز سماتها الإبداعية لتتحول إلى تتبع عقلي بارد لأحداث معروفة سلفاً لمتلق خبير بها وبتفصيلاتها، ولن يزيد الشعر علماً بها، وبذلك يتحول الشاعر ومعه النص، عن المهمة الرئيسية وهي إيجاد بناء شعري معبر، ليخوض في تفصيلات تاريخية قد لا تتوافر لديه القدرة العلمية التي تعينه على الفرز والتدقيق والتحقيق والاختيار، لأنه في حقيقة أمره ليس مؤرخاً وإن حاول ذلك، إنما يتلقى الأخبار التي غالباً ما تختلط عليه حين يعيد سردها بنسق شعري يفرض آثاره الفنية في التصرف بالحدث التاريخي الذي لابد من أن ينحرف به الشاعر شاء ذلك أم أبى، عن سيره الواقعي الدقيق. على أن الخيارات ليست

متاحة أمام الشاعر ليفصل القول في الروايات والأقوال المختلفة ليقابل بينهما ويستخرج الصحيح منها، وهو ما يشكل على الخبير المختص، لذا يقع في مطب اختيار زاوية ما واحدة، تفرض حضورها وآثارها عليه، من دون القدرة على التخلص من ذلك وهذا ما يقوده إلى التشابه، وربما التطابق مع شعراء آخرين اختاروا زاوية النظر نفسها بالاستناد إلى المصادر التاريخية نفسها فينتج عن ذلك شعر متشابه أو متطابق من حيث الوقائع التاريخية والسياق الفني الذي تتدرج فيه، ولو امتلك الشاعر زمام الإبداع الذي يحيل التاريخ إلى تجربة فنية يعيد إنتاجها لأوجد نصاً مختلفاً يحمل سمات مبدعة وأصالة ذلك الإبداع من دون الإخلال بالسياق التاريخي لأنه سيبعد عنه أصلاً إذ تتراجع الحاجة إليه حين تقصى المرجعية التاريخية فتكون خلفية للمشهد الذي يجري تصويره فنياً وليس له الصدارة حين يعاد عرضه كما يفعل هؤلاء التقليديون من ذوي المواهب المتواضعة.

القصيدة

هي الغيد تسقي من لواحظها خمرا
لذلك لا تنفك عشاقها سكرى
ضعايف لا تقوى قلوب ذوي الهوى
على هجرها حتى تموت به صبرا
وما أنا ممن يستلبن فؤاده
وينفثن بالألحاظ في عقله سحرا
ولا بالذي يشجيه دارس مربعٍ
فيسقيه من أجفانه أدمعاً حمرا
أأبكي لرسم دارسٍ حكم البلى
عليه ودار بعد سكانها قفرا
وأصغي ودادي للديار وأهلها
فيسلو فؤادي ود فاطمة الزهرا
وقد فرض الرحمن في الذكر ودها
وللمصطفى كانت مودتها أجرا
وزوجها فوق السما من أمينه
علي فزادت فوق مفخرها فخرا
وكان شهود العقد سكان عرشه
وكانت جنان الخلد منه لها مهرا
فلم ترض إلا أن يشفعها بمن
تحب فأعطاها الشفاعة في الأخرى
حبيبة خير الرسل ما بين أهله
يقبلها شوقاً ويوسعها بشرا
ومهما لريح الجنة اشتاق شمها
فينشق فيها ذلك العطر والنشرا
إذا هي في المحراب قامت فنورها
بزهرته يحكي لأهل السما الزهرا
وأنسية حواء فالحور كلها
وصائفها يعددن خدمتها فخرا
فلم يك لولاها نصيب من العلى
لانثى ولا كانت خديجة الكبرى
لقد خصها الباري بغر مناقب
تجلت وجلت أن يطيق لها حصرا
وكيف تحيط اللسن وصفاً بكنه من
أحاطت بما يأتي وما قد مضى خبرا
وما خفيت فضلاً على كل مسلم
فيالیت شعري كيف قد خفيتْ قبرا
وما شيع الأصحاب سامي نعشها
وماضرهم أن يغنموا الفضل والأجرا
بلى جحد القوم النبي وأضمروا
له حين يقضي في بقيته المكرا

له دحرجـوا مذ كان حيـاً دبابهم
وقد نسـبوا عند الوفاة له الهجرا
فلما قضى ارتدوا وصدوا عن الهوى
وهـدوا علـى علم شـريعته الغرّا
وحادوا عن النهـج القويم ضلالة
وقـادوا عليـاً فـي حمايلـه قهرا
وحيداً مـن الأنصـار لا حمزة له
ولا جعفـر الطيار فـادّرع الصبرا
وطأطأ لا جبناً ولو شاء لانتضى الـ
ـحسام الذي من قبل فيه محا الكفرا
ولكـن حكـم الله جـار وإنـه
لأصبر من في الله يستعذب الصبرا
فكابـد مـا لـو بالجبـال لهدّها
وشـاهد بين القوم فاطمة حسرا
سـتصرخ للعدل الحكيـم بعولة
وتشكوك يوم الحشر لا تعرف الحشرا
لهـا الله من مظلومـة كم ظلامة
لديك لها لا تسـتطيع لها حصرا
وأفجـع مـا قاسـته منـك وكلها
فجايع أن ارقيت صدر ابنها شمرا
فعلّى على الخطـاب عالي كريمة
خضيباً ورضت صدره الخيل والظهرا
فكابد حر السـيف وهو على ظما
وظل بحر الصيف ملقى على الغبرا
خضيباً بقانٍ مـن دماه بكت له الـ
ـسـماء دماً والأرض والأفقُ احمرّا
عليك أبا السـجاد ما أحسن البكا
وما أقبـح الدنيا بفقدك والصبرا
أتقضي ولم تشرب من الماء قطرة
تريباً وفيك الناس تستنزل القطرا
وتعـدو عليـك العاديـات مجرداً
ترض لك الصدر الذي استودع السرا
ويرفع فوق الرمـح منك محجب
إذا ما تبدى حجب الشمس والبدرا
ويقرع منك الثغر بالعود شـامتٌ
بمرأى كريمات لكم هتكت أسـرى
حواسـر يبـدو للنواظـر نورهـا
ويغـدو لها عمن توسـمها سـترا

التحليل

يمكـن تقسـيم القصيـدة علـى وحدات لأغـراض التحليل وذلك جرياً على النسق التقليدي الذي كتبت وفقاً له، فقد أخذت المقدمة، وهي الوحدة الأولـى الأبيـات السـتة الأولـى منها، وكان مـن واجـب هـذه المقدمـة أن تهيـئ الأذهان إلى الدخول في الغرض الرئيس الذي سيأتي بعدها.

وتتطلب موجبـات البناء أن يكون التناغـم والترابـط واضحـاً بين هذين الجزئيـن إلا أن الشـاعر لـم يوفق إلى ذلك فكان المطلع:

هي الغيد تسقي من لواحظها خمرا
لذلك لا تنفك عشـاقها سكـرى

يوحـي باتجاه آخر لا يفيد القصيدة فـي الوصـول إلى غرضهـا إذ انحرف الشـاعر بهـا إلى اتجاه آخـر، ثم عرج علـى ذكـر الشـجى والـدوارس في البيـت الرابع بأسـلوب النفـي، وهذا أضعف ارتباط المقدمة أيضاً، فالغرض الرئيـس ذكر مصيبـة الزهراء عليها السلام، ولـو ذكـر خلـو الديـار مـن أهلها، والوقوف عليها شـجى ولوعة، لكان ذلـك أجدى لـه في إحـداث آصرة من الترابط قوية بين الوحدتين البنائيتين.

لقـد كان التخلـص إلـى ذكـر

فاطمة الزهراء عليها السلام لأول مرة في البيت السادس قد جرى عبر الإنكار، ونفي البكاء، ويصح هذا الأمر لو استقام على النسق الذي جرى عليه في الأبيات اللاحقة ولغاية البيت الثامن عشر، إذ كانت هذه الأبيات تسمو بالشخصية إلى حقها من الرفعة الإلهية التي اختارها الله بها، لكن الإنكار يحدث بعد البيت الثامن عشر وهو ما يجعل القول ممكناً بأن الشاعر لم يوفق إلى استثمار الوقوف على الطلل أو الديار الدوارس، وإنما عمد إلى نفي ذلك من دون مسوغ.

إن الوحدة البنائية الواقعة بين الأبيات (٧-١٨) تقدم صورة روحية سامية للسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام إذ يبدأ البيت السابع نقطة انطلاق مهمة وذلك برد حب الناس لها إلى فرض من الله، فهو واجب من الواجبات التي افترضها الله سبحانه على عباده:

وقد فرض الرحمن في الذكر ودها
وللمصطفى كانت مودتها أجرا

ثم يقرن ذلك الحب بحب النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وآله ليزداد قوة بجعل الله سبحانه الأجر في ذلك الحب، ومن أجل أن يكون مرجع هذا الحب واضحاً يظهر الشاعر تلك المناقب العظيمة التي حباها الله بها لتكون أهلاً لهذا الحب، فالبيت الثامن بيّن زواج السيدة فاطمة عليها السلام بوصيّ النبي وابن عمه علي بن أبي طالب، وإن كان الزواج واقعة حياتية، أو اجتماعية اعتيادية، تعرض لمن شاء من الناس، فإنها مع الزهراء وبعلها تأخذ منحى روحياً، نقياً طاهراً وذلك بأن هذا الزواج كان أمراً إلهياً جرى تدبيره في السماء ونفذ في الأرض حتى أن شهود الزواج نفسه كانوا من ملائكة الله المقربين، وهذا شأن لم يبلغه زواج غيره.

أما الحصيلة المباركة من هذا الزواج فهي بعد الاقتران بالصنو الرفيع، والقرين الكفء تحوز المرأة فيه مبتغي آخر هو إكرام من الله سبحانه، ويستفيد الشاعر هنا من سمة الجناس الجزئي، مستثمراً كلمة (الشفاعة):

فلم ترض إلا أن يشفعها بمن
تحب فأعطاها الشفاعة في الأخرى

فالفعل (شفع) في الشطر الأول يعني اقتران الصنوين الكفأين، ومنه اشتق (الشفاعة) التي أكرمت بها الزهراء عليها السلام في الآخرة التي أوردها الشطر الثاني من البيت.

يظهر البيتان (١١-١٢) مكانة الزهراء عليها السلام عند أبيها وهي أم أبيها من

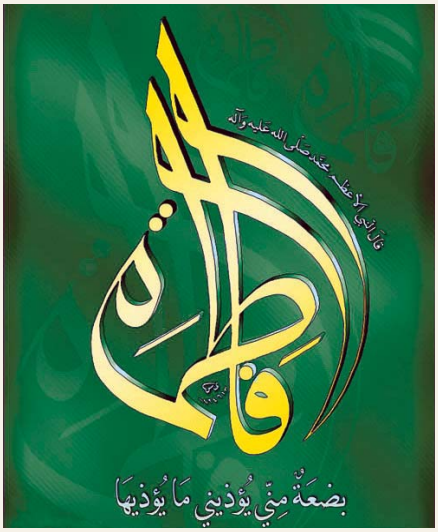

دون النساء، ويبدو جلياً تناص هذين البيتين، وأبيات أخرى في القصيدة، مع الأحاديث النبوية الكثيرة الواردة بحق الزهراء عليها السلام في هذا المجال التي تبين عظيم مكانتها من أبيها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

تكفلت الأبيات (١٣-١٧) برصد بعض من عظيم صفات السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام التي تلخصت بالصفة التي جمعت بين الأنس والحور، ثم رفعت فوق ذلك بأن جُعلَ لها حور الجنان خدماً، وجميع هذه الصفات هي التي جعلتها المرأة الأولى في الكيان الإنساني العظيم الذي خلقه الله سبحانه، متفوقة بذلك ـ وحق لها ـ على كل ذوات المجد والسؤدد من بنات جنسها بما فيهن أمها الشريفة خديجة الكبرى على ما لها من المنزلة الكبرى في الإسلام.

يمهد البيت (١٨) لنقلة جديدة في النص، فبعد ضربة فنية ناجحة في الإفادة من الجناس في الفعل خفيت في قوله:

وما خفيت فضلاً عن كل مسلم

فياليت شعري كيف قد خفيت قبرا

يهبط النص عن مستواه الشعري الأول ليغرق في متاهات التاريخ التي هي بحاجة إلى التحقيق والتثبت من جهة، وفي مسارب الإملاء العقلي الذي يقلص مساحة الشعرية إلى أدنى مستوياته، ولاشك في أن ذلك راجع إلى نضوب الموهبة، وقصر النفس الشعري الذي سرعان ما هبط بصاحبه من علياء الإبداع النسبي إلى حضيض التقليد والإملاء، إذ يهتم النص بعرض حال شخصية أخرى هي زوج السيدة فاطمة عليها السلام في المحنة التي جرت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله فالملاحظ أن الشاعر قد شغل نفسه بهذه القضية غير ملتفت إلى آثار فقد المرأة أباها في أحلك ظرف وأشد حاجة فلم يبين وقع هذا الحدث الجلل على تلك الروح السامية المرهفة، فأعرض عن ذلك ليهتم بقضية أخرى أوهنت بناء النص، حين ابتعدت به عن نقطة التركيز الموضوعية لينتقل منها إلى عرض الأذى والظلم الذي وقع على الزهراء عليها السلام:

ستصرخ للعدل الحكيم بعولة

وتشكوك يوم الحشر لا تعرف الحشرا

وهو تبيان لتلك المظلومية التي أنتجت ـ بحسب الشاعر ـ مظالم أخرى أفجعها مقتل ابنها وسبط النبي الأكرم الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء بعد بعض من ذلك الدهر، وهو ما تعرضه الأبيات (٣٠-٣٩) التي تمثل خاتمة تقليدية في القصيدة الشيعية، وهي التعريج على ذلك أعظم مصائب الإسلام بعد فقد النبي صلى الله عليه وآله وهي نكبة المسلمين بقتل سبط نبيهم على أيدي المسلمين أنفسهم، وهي قضية متجددة على مدى الأيام والدهور فحق لها الذكر والتذكير بها، وقد أحسن الشاعر في هذا الموضع إحساناً لا ينكر فقد أوقع الجناس في شطري البيت (٣٢) باستعماله كلمة (حر) التي كانت ذات أثر بين في زيادة قوة التأثير بتجميع أنماط من الحر

اجتمعت على ابن بنت الرسول، ومثله في الإجادة البيت (٣٥) الذي يكشف عن تلك الموازنة المختلفة حين يحرم الحسين عليه السلام قطرة ماء واحدة وبه يستنزل قطر السماء وبركاتها على الناس.

أما البيت (٣٦) فكانت ضريبته الفنية في استعمال الاسم الموصول الذي به يصف به الصدر الشريف وقد استودع سر الله الأعظم ولكنه يرض بحوافر خيول بني أمية، في حين أوقع البيت (٣٧) الإشارة بالجزء إلى الكل باستعمال كلمة (محجب) كناية عن الوجه أو الرأس جميعاً بدليل كلمة (يرفع به الواقعة في أول البيت ليدخل في جناس مع الفعل (حجب) الواقع في آخر البيت: وكذلك الأمر في البيت الأخير إذ تعمل كلمة النور وسيطاً بين طرفي الطباق بين كلمتين (حواسر) و(سترا) هذا فضلاً عن الموازنة بين حواسر والنواظر، وهما مما يستجاد للشاعر في هذا الموضع.

الوزن والقافية: جرت القصيدة على البحر الطويل وهو من أكثر بحور العربية نظماً فهو يصلح لمختلف الأغراض ويستوعب أكثر الانفعالات، وقد عرض له التدوير في موضعين وليس ذلك بغريب وإن قل حدوثه في الطويل عموماً.

أما القوافي فقد اتخذت الراء روياً لها وزادها ألف الاطلاق مداً وأثراً ولعله يصلح للإلقاء أكثر من القراءة المتأنية التي قد تغيّب بعض ذلك الرنين الذي يظهره الراء مطلقاً.

وقد عرضت للقوافي علّة (الإيطاء) في البيتين (٨ و ٤) في حين جرى ترديد قواف أخرى مكررة، ولكن ليس بإيطاء.

الخاتمة

لابد من الالتفات إلى بعض الملاحظ العامة في القصيدة وأبرزها التوفر على القدرة على النظم ولكن تحت سطوة العقل الواعي الذي يملي على الشاعر مستنداً إلى ذاكرة محملة بمخزون قديم، من دون أن يفسح ذلك المساحة اللازمة للإبداع الشعري لكي يتدفق متحرراً من هيمنة الذاكرة فيتاح ابتكار الصورة المؤثرة والفكرة البارعة وما سوى ذلك من مظاهر الإبداع الحق، وكذلك يلحظ بوضوح غياب شبه تام للأدوات والأساليب البلاغية الفاعلة وإن حضرت فهو حضور خجول لا يكاد يترك أثراً يذكر، ولا يوجد من ذلك سوى الاهتمام بالجناس والتجنيس وهذا لا يكون ذا أثر إن لم يجئ عفو الخاطر بريئاً من الصناعة المقصودة، على أن الجناس هو من أبرز ملامح القصيدة التقليدية لاستناده إلى الوعي واعتماده صناعة لغوية وليست إبداعية.

أما الملحظ الأخير: فإن المنطقة الشعرية المشعة في القصيدة قد انحصرت في الأبيات (٧-١٧) وذلك بالقياس إلى بقية المقاطع وليس بالقياس إلى مستوى الإبداع الشعري عند كبار الشعراء من الأولين والآخرين ■

الخطبة الصغرى.. لفاطمة الزهراء عليها السلام

دراسة وفن

د. عبد الإله عبد الوهاب العرداوي •
كلية التربية/ جامعة بابل

مدخل

بتمايز جاء الإسلام بنور مشكاته ليزيل ظلام الجاهلية الدامس، وينقذ البشرية ذكوراً وإناثاً من قيود العبودية بأنواعها، وليفتح بذلك آفاقاً واسعة، ومجالاً رحباً للمشاركة في صنع الحياة الجديدة يستند فيه أبناء المجتمع الجديد إلى الدستور الرباني ـ القرآني الكريم ـ وسنة نبيه الصادق الأمين صلى الله عليه وآله.

لقد كان دور الرجل ومكانته معروفاً على مختلف الأصعدة، ولا يغض ذلك من شأن المرأة ودورها، فلقد كان للمرأة دور هام في أحداث عصر صدر الإسلام وما تلاه من عصور اتسعت فيها مشاركتها في مختلف نواحي الحياة، ومنها الحرب، فلو أخذنا وقعة صفين مثلاً، فقد كان للنساء دور هام في هذه الحرب يجلن بين الصفوف، ويتقلدن حمائل السيوف، وبأيديهن أسواط منتشرة وعلى أفواههن كلام كأنه في التحميس سحر بابل، يقذفن بالخطب الحارة كالفحول منهن في صفوف الإمام علي عليه السلام عكرشة بنت الأطرش، وأم الخير بنت الحريش البارقية، والزرقاء بنت عدي الهمدانية[1].

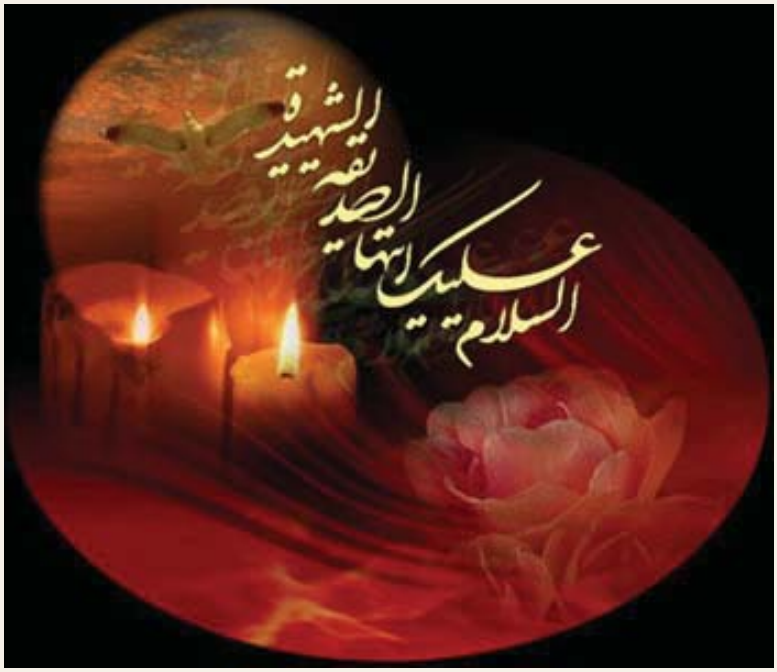

وقد كان هناك مواقف أخرى للمرأة تدل جميعها على عظم مكانة المرأة ودورها في إدارة دفة الحياة في مجالاتها كافة[٢] وإن كنا بحاجة إلى دليل لتبيان مكانة المرأة ودورها، فخير شاهد على ما نقول دور السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام لاسيما بعد وفاة أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسيطرة أبي بكر على الخلافة، وما كان من خطبتها الفدكية (الكبرى) التي حركت المشاعر، وألهبت النفوس مطالبة بحقها بوراثة أبيها في فدك من منكريه[٣] فضلاً عن خطبتها الصغرى التي ألقتها على مسامع جمع من نساء المهاجرين والأنصار عندما دخلن عليها يعدنها بعد أن مرضت المرضة التي توفيت بها، وهذه الخطبة تعد من أروع الخطب وأبلغها على قصرها بالقياس إلى الخطبة الكبرى، وهما تمثلان بعضاً من تراثها الفكري الثر، وفيهما تعرضت الزهراء عليها السلام إلى جوانب عقائدية واجتماعية وتشريعية وسياسية وغيرها، مما يدل على قدرتها الفكرية والعلمية، وكيف لا، وهي كريمة الدوحة المحمدية صلى الله عليه وآله، وعقيلة خير الأنام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وأم الأبناء البررة الأطهار، قواعد النبوة، ورواسي الرسالة المحمدية.

وهذا كله، يجعلنا نؤيد أن فاطمة الزهراء عليها السلام وضحت في هاتين الخطبتين كل قضايا الإسلام الرئيسية[٤].

وقد اخترنا الخطبة الصغرى آملين سبر أغوارها، كاشفين عن كنه ملامحها الفنية التي تميزت بها، فحسبنا بهذا العمل المتواضع أن نقدمه قرباناً لهذه الشخصية العظيمة على مر التاريخ لنلوذ به في يوم لا ينفع فيه مال ولا

بنون، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

النص كما ورد في الاحتجاج

أصبحت والله: عائفة لدنياكن، قالية لرجالكن، لفظتهم بعد أن عجمتهم، وشنأتهم بعد أن سبرتهم، فقبحاً لفلول الحد، واللعب بعد الجد، وقرع الصفاة، وصدع القناة، وختل الآراء، وزلل الأهواء، وبئس ما قدمت لهم أنفسهم: أن سخط الله عليهم، وفي العذاب هم خالدون. لا جرم لقد قلدتهم ربقتها وحملتهم أوقتها، وشننت عليهم غاراتها، فجدعاً، وعقراً، وبعداً للقوم الظالمين.

ويحهم أنى زحزحوها عن رواسي الرسالة، وقواعد النبوة والدلالة، ومهبط الروح الأمين، والطبين بأمور الدنيا والدين؟ ألا ذلك هو الخسران المبين! وما الذي نقموا من أبي الحسن عليه السلام؟ نقموا والله منه نكير سيفه، وقلة مبالاته لحتفه، وشدة وطأته، ونكال وقعته، وتنمره في ذات الله، وتالله لو مالوا عن المحجة اللايحة، وزالوا عن قبول الحجة الواضحة، لردهم إليها، وحملهم عليها، ولسار بهم سيراً سجحاً، لا يكلم خشاشه، ولا يكل سائره، ولا يمل راكبه، ولأوردهم منهلاً نميراً، صافياً، روياً، تطفح ضفتاه ولا يترنق جانباه، ولأصدرهم بطاناً، ونصح لهم سراً وإعلاناً، ولم يكن يتحلى من الغنى بطائل، ولا يحظى من الدنيا بنائل، غير ري الناهل، وشبعة الكافل، ولبان لهم: الزاهد من الراغب، والصادق من الكاذب، ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون، والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين، ألا هلم فاستمع؟! وما عشت أراك الدهر عجباً! وان تعجب فعجب قولهم! ليت شعري إلى أي سناد استندوا؟! والى أي عماد اعتمدوا؟! وبأية عروة تمسكوا؟! وعلى أية ذرية أقدموا واحتنكوا، لبئس المولى ولبئس العشير، وبئس للظالمين بدلاً، استبدلوا والله الذنابى بالقوادم، والعجز بالكاهل، فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون. ويحهم أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع؟ أم من لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون؟! أما لعمري لقد لقحت، فنظرة ريثما تنتج، ثم احتلبوا ملء القعب دماً عبيطاً، وذعافاً مبيدا، هنالك يخسر المبطلون ويعرف التالون غب ما أسس الأولون، ثم طيبوا عن دنياكم أنفساً، واطمأنوا للفتنة جأشاً، وابشروا بسيف صارم، وسطوة معتد غاشم، وبهرج شامل،

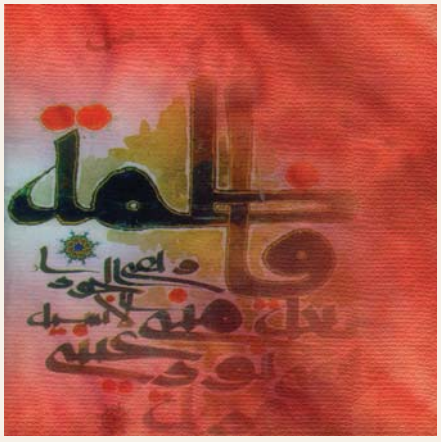

واستبداد من الظالمين: يدع فيئكم زهيدا، وجمعكم حصيدا، فيا حسرة لكم! وأنى بكم وقد عميت عليكم! أنلزمكموها وأنتم لها كارهون[٥].

التحليل

الخطبة ناتجة عن مشاعر صاخبة، فالمرأة مهتضمة، سُلب حقها في وراثة أبيها، وسلب حق زوجها في الخلافة، على الرغم من أحقيته وفق كل الاعتبارات، ولا يعني هذا غلبة الجانب العاطفي على الجانب العقلي، وإنما نراها تدفع بالحجج والبراهين التي تؤيد هذه الأحقية، فهو مهبط الروح الأمين، والعالم بأمور الدنيا والدين، فكان والله ذلك الخسران المبين.

اللغة

اللغة وسيلة التعبير في الحياة، وأداة الأديب الإبداعية التي يسلك فيها مسلكاً خاصاً تتجسد فيه مقدرته الفنية النابعة من ثقافته وتذوقه وخبرته في اختيار الألفاظ واستثمار خصائصها المميزة للتعبير عن عواطفه وانفعالاته، ولغة الخطبة جاءت معبرة عن المقاصد التي أرادت الزهراء عليها السلام توصيلها إلى المتلقي الحاضر ـ نساء المهاجرين والأنصار ـ والغائب ـ الناس جميعاً ـ ويتضح ذلك من خلال الألفاظ التي استعملتها فهي نقية جزلة واضحة قوية التأثير في المتلقي من خلال جرسها ورنينها، فضلاً عن الشمولية والعمق الذي نلحظه فيها، على الرغم من المباشرة ووضوح المعاني.

ونلحظ تركيزها على معاني الخداع والغدر التي اتضحت في قضية سلب الخلافة من زوجها كقولها: (وما الذي نقموا من أبي الحسن عليه السلام نقموا والله منه نكير سيفه، وقلة مبالاته لحتفه...)[٦].

أما الأساليب، فنلحظ استعمالها أساليب عدة وظفتها لتحقيق مرامها، ومنها:

الاستفهام الذي يمتلك (قدرة طيبة في إدخال المتلقي في صميم الصورة)[٧] وهو بذلك يثير في نفس المتلقي مشاعر مختلفة هي (ألصق بتصوير الأحوال النفسية من الألم والحسرة والتعجب والتوجع ونحو هذا)[٨] ومنه قولها عليها السلام: (ويحهم أنى زعزعوها عن رواسي الرسالة...) فالاستفهام هنا يحمل دلالة مجازية هي التعجب، فالزهراء عليها السلام تتعجب من رجال أولئك النسوة، وكيف أنهم رضوا غير أبي الحسن عليه السلام ليكون خليفة للمسلمين، فهو عليه السلام ونسله رواسي الرسالة... الخ، ولا يخلو خطابها من الغلظة والزجر بدلالة لفظة ـ ويحهم ـ وهذه القسوة والشدة التي نلحظها في الفعل ـ زعزع ـ بدلالته التي تعني تحريك الشيء وقلعه من جذوره، فضلاً عن توالي حرفي الزاي والعين في الفعل وما يبعثه جرسهما من إيحاءات دلالية وموسيقية.

ثم تستفهم متعجبة أكثر فأكثر فتقول: (ليت شعري إلى أي سناد استندوا، وإلى أي عماد اعتمدوا، وبأية عروة تمسكوا، وعلى أية ذرية أقدموا واحتنكوا) فالمعاني والصور والأحوال النفسية تتوالى فيها، فمرة تتعجب من سندهم الذي استندوا إليه، وتارة أخرى من العماد الذي اعتمدوا عليه، وثالثة

من العروة التي تمسكوا بها، وأخيراً من الذرية الذين أقدموا واستولوا على الخلافة، ألا ساء ما فعلوا، ولبئس المولى الذي اتخذوه، ولبئس النصير، ويبدو أن تكرار الاستفهام بصيغة ـ أي ـ وبدلالة ما تضاف إليه قد ساعد في تركيز تلك المعاني بما يضفيه من زخم موسيقي ودلالي.

ثم تستفهم متعجبة أيضاً في قولها: (أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي...) وقد وردت مواضع أخرى للاستفهام في الخطبة.

ومن الأساليب، الشرط، الذي يمتلك قدرة طيبة في إثارة ذهن المتلقي، وجعله في حال من التوتر النفسي، مترقباً، متلهفاً، لمعرفة الصورة المرسومة في ذهن الأديب حتى إذا جاء الجواب قدر لهذه الصورة أن تكتمل فحققت بذلك التوازن النفسي المطلوب للمتلقي. ومن الشرط قولها: (وتالله لو مالوا عن المحجة اللايحة، وزالوا عن قبول الحجة الواضحة لردهم إليها) ففعل الشرط وجوابه غيرٍ ممتنع الوقوع، متحقق في الواقع قولاً وفعلاً. فإن مالوا عن جادة الطريق، وامتنعوا عن قبول الحقيقة لردهم إليها بما امتلكه من صفات تؤهله للقيام بمختلف الأدوار، فهو وصي النبي صلى الله عليه وآله وهو عنده بمنزلة هارون من موسى، ولا يخفى تأكيد كل الكلام بالقسم ـ تالله ـ.

ومن الأساليب، الأمر، بما يمتلكه من دلالات متعددة كما في قولها: (ألا هلم فاستمع) الذي ينبئ عن حاجة للاستماع مع الفهم والإدراك لما سيقال، وهي عليها السلام قد خرجت بالأمر هنا إلى دلالة مجازية هي الاستفهام.

ومن الأمر قولها: (وابشروا بسيف صارم) وغيرها من المواضيع في الخطبة.

ومن الأساليب، النفي، فمثلاً استعمالها (لم) في قولها عليها السلام: (لم يكن يتحلى من الغنى بطائل) فلم يكن الإمام علي عليه السلام غنياً أو ممن يروم الغنى، و(لم) أفادت توكيد نفي الفعل، وهذا المعنى (التحلي) مؤكداً في الحال (المضارع) والماضي (الماضي) من خلال دلالة (لم) على معنى الفعل المضارع إلى الماضي، والماضي حاصل ومقطوع به فضلاً عن المستقبل، ودلالة الفعل متعارضة مع تحديد الزمن، فليس هناك زمن واحد، وإنما الأزمان كلها متحققة فيها.

وهذا البعد الزمني الواحد، والاستمرار في حدث الفعل، وتفرده بناءً على الأمر الرباني نراه في استعمال (لا) في قولها عليها السلام: (ولا يحظى من الدنيا بنائل)، وقولها: (لا يكلم خشاشة) وغيرها من مواضع أخرى من الخطبة.

وقد وردت مواضع أخرى للنفي بـ(ما) و(غير) في الخطبة.

ومن الأساليب، التوكيد، الذي من طرقه، القسم، وذلك لتعميق الإحساس عند المتلقي بأن الخبر مؤكداً ولا يحتاج إلى جدال ونقاش سواء أكان القسم بـ(الواو) كما في قولها عليها السلام: (أصبحت والله عائفة لدنياكن) ، أو (التاء) كما في قولها عليها السلام: (وتالله لو مالوا...)، وقد تستعمل عليها السلام بعض الألفاظ التي ألفها العرب في القسم كلفظة (لعمرك) في قولها عليها السلام: (أما لعمري لقد لقحت)، أو (ليت شعري) في قولها عليها السلام: (ليت

شعري إلى أي سناد استندوا).

وقد وردت مواضع أخرى للتوكيد بـ(قد) وغيرها من الطرق في الخطبة.

الإيقاع

لقد سجل الإيقاع حضوراً واضحاً في الخطبة، إذ نرى وسائل أداء إيقاعية أثرت البنية الداخلية للخطبة بما توحيه من تنغيم موسيقي وكثافة دلالية، فمثلاً نلحظ كثرة الاستفادة من آي القرآن الكريم في عدة مواضع مما يضفي على النص روحانية عميقة ووقع دلالي وتوقيع موسيقي، كقولها عليها السلام مثلاً: (ألا هو الخسران المبين) (سورة الزمر، الآية: ١٥)، و(أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون) (سورة المائدة، الآية: ٨٠)، و(أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) (سورة هود، الآية: ٢٨)

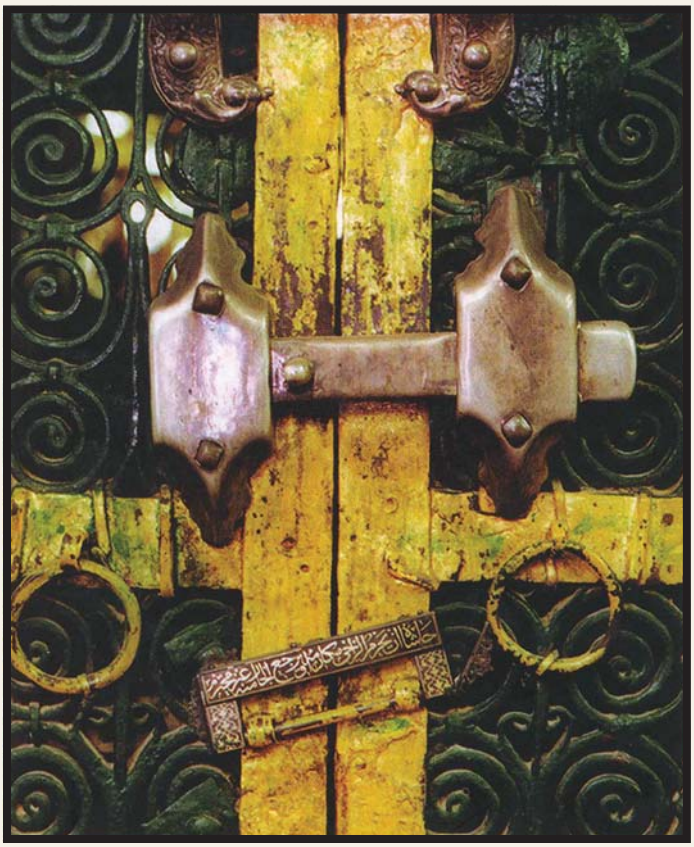

صورة الغلاف

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «...ألا إن فاطمة بابها بابي، وبيتها بيتي، فمن هتكه فقد هتك حجاب الله».

البحار ٢٢/ ٤٧٦

وغيرها من مواضع أخرى من الخطبة.

ونجد أيضاً، السجع، الذي ورد بكثرة في الخطبة، لكنه لم يكن مجحفاً أو معنفاً، وإنما يحمل تنغيماً موسيقياً وكثافة دلالية، كقولها عليها السلام: (وقرع الصفاة، وصدع القناة)، وقولها عليها السلام: (وختل الآراء، وزلل الأهواء) وغيرها في مواضع كثيرة.

ومنها، الطباق، وهو فن بديعي له إبداعه الخاص الذي يتميز به ويتضح ذلك الإبداع في أنه يجمع بين المعاني المتضادة، فيخلق بذلك صوراً نفسية وذهنية متعاكسة يتلقفها المتلقي ليوازن بينها في عقله ووجدانه، فيتبين ما هو حسن منها، وما هو ضده، إذ أن هذه المعاني المتضادة تولد إيقاعات خفية داخل النفس الإنسانية لتناقض المواقف التي تعبر عنها، كقولها عليها السلام: (ونصح لهم سراً وإعلاناً) أو قولها عليها السلام: (الزاهد من الراغب، والصادق من الكاذب) وغيرها من المواضع.

ومنها الجناس، بوصفه أحد المحسنات البديعية، وهو اتفاق الألفاظ في الحروف كلها أو بعضها، واختلافها في المعنى، مما يؤدي إلى تقوية جرس الألفاظ، وجذب انتباه السامع بألفاظ متناسقة متجانسة، كقولها عليها السلام: (فقبحاً لفلول الحد، واللعب بعد الجد) أو قولها عليها السلام: (وتالله لو مالوا عن المحجة اللايحة، وزالوا عن قبول الحجة الواضحة) ففي الأولى جانست بين (الحد والجد) والثانية بين (المحجة والحجة) وقد وردت مواضع أخرى للجناس في الخطبة.

ومنها، التكرار، الذي لا يخفى أهميته من خلال ترديده في مواضع مختلفة، وذلك لكونه الأداة الحسية الوحيدة لجذب المتلقين إلى المضامين الانفعالية المختلفة، وبذلك يمكننا النظر إلى التكرار بوصفه إلحاحاً على الجانب الدلالي فحسب، بل على الجانب الصوتي كذلك، وقد استعملت الزهراء عليها السلام التكرار لزيادة النغم، وتقوية الجرس، فضلاً عن التقوية والتأكيد للمعنى الذي يتأتى بعده، فمن تكرار الفعل، قولها عليها السلام: (وما الذي نقموا من أبي الحسن عليه السلام نقموا والله...) أو تكرار شبه الجملة، كقولها عليها السلام: (إلى أي سناد استندوا، والى أي...) أو تكرار الأداة (لا) في قولها عليها السلام: (لا يكلم خشاشة، ولا يكل سائره ولا يمل راكبه) وغيرها من الموارد التي ورد فيها التكرار في الخطبة.

الصورة الفنية

الصورة من ركائز الجمال عند الأديب، ووسيلة للتعبير عما يدور في داخل الإنسان، فهي ترجمة لعواطفه وأحاسيسه، أو انعكاس لحواسه التي ترتبط بجوهر التجربة التي عاناها، ويلجأ الأديب إلى أساليب البيان أو غيرها لكي يقرب الصورة إلى الآخرين، ويجريها في أذهانهم مثيرة ما استقر في هذه الأذهان من ذكريات وتجارب متنوعة، ومن الصورة المستندة إلى أساليب البيان والتي استعملتها الزهراء عليها السلام الصورة الاستعارية، كما في قولها عليها السلام: (لقد قلدتهم ربقتها وحملتهم أوقتها)، فالزهراء عليها السلام ترسم لنا صورة الدنيا التي تقيد الرجال وترمي ثقلها عليهم،

ولكنها لم تعبر بصورة مباشرة، وإنما لجأت إلى وسيلة أخرى أكثر تأثيراً وعمقاً، وهي صورة البهم الواحدة التي تشد بحبل فيه عدة عرى، وما توحيه هذه الصورة المحسوسة من تأثير أعمق في نفس المتلقي.

ومنها قولها عليها السلام: (وتنمره في ذات الله) فهي عليها السلام ترسم لنا صورة للإمام علي عليه السلام وغضبه في حق الله واستماتته في الدفاع عنه، وهي عليها السلام أعطت للصورة أبعاداً واسعة وخيالاً خصباً، إذ استوحت من البيئة صورة النمر الذي هو ضرب من السباع، لا تلقاه أبداً إلا متنكراً غضباناً فوازنت بين صورة النمر الغضبان وصورة الإمام علي عليه السلام وغضبه في ذات الله.

ومنها قولها عليها السلام: (استبدلوا والله الذنابى بالقوادم، والعجز بالكاهل) فهي عليها السلام تصور سوء صنيع القوم باستبعادهم للإمام علي عليه السلام عن الخلافة، ورضاهم بغيره، فكأنهم بذلك استبدلوا إتباع سفلة الناس دون الرؤساء، لكنها أعطت للصورة حيوية كبيرة وتأثيراً عميقاً من خلال تصوير ذلك بالذنابى وهو ذنب الطائر، وقوادمه وهو مقادم ريشه، والعجز وهو مؤخر الشيء، والكاهل وهو مقدم أعلى الظهر مما يلي العنق، فشتان بينهما، وشتان بين الإمام علي عليه السلام وغيره ممن اختير للخلافة.

ومن الصور الكنائية، قولها عليها السلام: (لفظتم بعد أن عجمتهم وشنأتهم بعد أن سبرتهم) فالزهراء عليها السلام أرادت أن تصور معرفتها كنه أمر الرجال، لكنها لم تعبر بصورة مباشرة، وإنما لجأت إلى التعبير غير المباشر مما أعطت للصورة شدة وعنفاً في نفس المتلقي، فكانت صورة الشيء الذي يوضع في الفم ويعض ويمضغ جيداً ثم يرمى به، فهي عرفت الرجال واختبرتهم وامتحنتهم واحداً واحداً شأنهم في ذلك شأن الشيء الذي يوضع في الفم، إذ أنه يمضغ جيداً وبكل اتجاهاته، إذ لا نجد جهة من دون أن ينالها المضغ والعض.

ومنها قولها عليها السلام: (وشدة وطأته) فهي تصف الإمام علي عليه السلام بشدة شجاعته، لكنها لم تشأ التعبير المباشر، وإنما لجأت إلى الصورة غير المباشرة التي تؤثر كثيراً في نفس المتلقي، فكانت صورة الوطأ وهو الدوس بالقدم الذي سمي به الغزو والقتل، لأن من يطأ على شيء برجله، فقد استقصى هلاكه وإهانته.

وقد وردت مواضع أخرى من الصور البيانية وغيرها من الصور في الخطبة.

هذا ما وفقنا الله للوقوف عليه من الجوانب الفنية للخطبة، وهناك جوانب أخرى كثيرة لم نشر إليها لضيق المقام والمقال، إلا أنه يمكن للقارئ أن يلاحظها بالقراءة المتأنية للخطبة، والله الموفق ■

---

(١) ينظر: الخطابة في صدر الإسلام، ص٤٥٧.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص١٥٩.
(٣) ينظر: الاحتجاج، ١/٢٥٣-٢٨٤.
(٤) ينظر: اشراقات فكرية من أنوار الخطبة الفدكية، ص٤٨.
(٥) ينظر: الاحتجاج، ٢٨٦-٢٩٢.
(٦) ينظر: الخطبة.
(٧) الصورة الفنية معياراً نقدياً، ص٣٩٨.
(٨) في لغة الشعر، ص٥٩.

كلمة العدد

أسس الفكر الشيعي

الأمين العـام ٣٨

قرآنيات

مع العلامة الطباطبائي ومقدمته في تفسير الميزان

د. محمد محمود زوين ٤٠

لغة تميم في القرآن الكريم

مهدي الظالمي ٤٥

استطلاع المجلة

الهاشمية.. عاصمة الماضي.. مدينة الحاضر

حيدر الجـد ٥٤

في رحاب الفقه

أجوبة استفتاءات مطابقة لفتاوى

سماحة السيد الحكيم (مدّ ظله)..... ٧٢

واحة الأدب

قصة قصيرة: النذر

بنت العـراق ٧٦

للفضيلة نجومها

الشيخ المفيد.. عرض ودراسة

أ. د. الشـيخ صاحب نصّار ٧٨

«نزيل مصر وشاعر العصر» عمارة اليمني

أنمار معاد المظفر ٨٦

ص٧٨

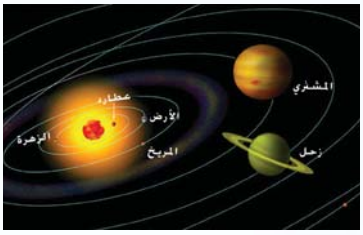

ص١١٢

ص٩٦

ص ٤٠

ص ١٢٣

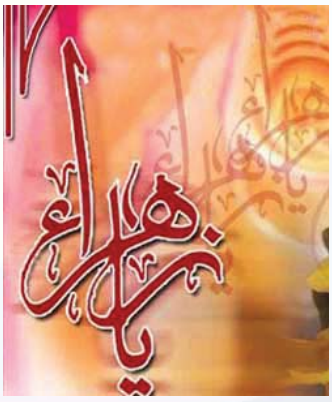

ص ٣ـ٣٥

وجهاً لوجه

المخدرات ضرر لا تبيحه إلا الضرورة

السيد محمد صادق الخرسان ٩٦

المخدرات والإدمان

د. حسين عبدالكاظم عبدالحسين..... ١٠١

لقاء العدد

لقاء مع شاعر أهل البيت(ع) الدكتور عباس الترجمان

أحمد الكعبي الطويرجاوي ١٠٦

طروحات عامة

إشارات قرآنية في نشوء وتمدد الكون

د. عامر عمران الخفاجي

د. فيصل علـي البصـام ١١٢

الزهد والإسراف في البنيان/ الحلقة٢

د. علي ثويني ١٢٣

االدكتور نجم الدين محمد هوارمي

من (المتحولون) ١١١

أجوبة مسابقة العدد (١٦) وأسماء الفائزين ١٢٨

مسـابقة العدد (١٨) ١٢٩

أسس الفكر الشيعي

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أسس الفكر الشيعي العقيدي منه والتشريعي مستمداً من فكر الأئمة الهداة صلوات الله عليه أجمعين ولا غرو في ذلك لكونهم الامتداد الطبيعي للنبوة، وعدل القرآن الكريم وحملته، الذين عندهم علمه، وهم الورّاث الحقيقيون لما يحتويه من أسراء وعلوم. فكانوا المأصلون لذلك الفكر الذي بقي عبر القرون من الزمن يطرح منسجماً مع ما تتطلبه العصور المختلفة من رد الشبهات والمفاهيم الخاطئة، ويعطي ذلك إشارة واضحة على استيعاب الفكر المذكور لجميع الإشكالات التي يمكن أن تصطدم بها المجتمعات الإسلامية على طول الخط من أفكار هدّامة تطرح لصالح السلطان الذي منيت به الأمة في تاريخها العريق.

ويرجع الدور الذي تبنته منظومة الإمامة عند الشيعة من منظور رسالي إلى مجموعة أدوار تجزيئية يقوم بها إمام العصر كل حسب ما تتيح له الفرصة، ليكمل ما بدأ به الإمام الذي سبقه مع التأكيد التام على صحة جميع ما بناه ذلك الإمام السابق، وهكذا حتى نمت هذه الأصول الدينية بشكل متكامل ذي طرح واحد أصيل، يرجع إليه لفهم الحقائق الإسلامية التي جاءت بها الرسالة السماوية المحتاجة إلى طرح مفاهيم تجزيئية بالنحو الذي أشرنا إليه لتتكامل على طول الخط منظومة إسلامية، والسبب في عدم طرحها بشكل متكامل في وقت واحد ما كانوا يلاقوه من ظلم واضطهاد.

فبدأت الرسالة هذه بالإمام أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) الذي لم يجد بداً من السكوت طيلة ثلاثة عقود من الزمن تقريباً، ماسكاً جمرة من النار، حفاظاً على إرث النبوة الذي ورثه من النبي الأكرم ﷺ ولكن حينما سنحت له الفرصة للقيام بالدور الهام الرسالي ـ وكل حياته رسالية ذات أدوار هامة ـ بدأ بطرح الأفكار الإسلامية بتأصيل قواعد التوحيد ونفي الشريك والأضداد لله سبحانه، بالأسلوب الفذ، والتنظير المنهجي الذي كان يتبعه (صلوات الله وسلامه عليه) في طرحه البديع، ذي القوالب الفنية عديمة الشبيه.

كما أصّل نفي الرؤية عنه سبحانه والتجسيم في الدنيا والآخرة، وبشكل قاطع مبرهن عليه بما لا يسع أحد إنكاره، كما أثبت المعاد والحشر والنشر على غرار ما جاء به القرآن الكريم كذلك. كما كان يؤكد على تأصيل فكرة عصمة الأنبياء جميعاً، تبعاً للتنزيل، لكن بطرح يتسم بالأساليب البيانية الرائعة، التي تستولي على القلوب ـ بعدما تم النيل من هذا المقام السامي للنبوة، التي هي الوحي والإخبار عن السماء في جميع أدوار حياتها، كما قال سبحانه واصفاً للنبي الأكرم ﷺ: ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾ وبين ذين وذين كان يبين مفاهيم الأخلاق، ويطرح نظريات الإيمان والإسلام، والتقوى والورع، ويمثل لبديع خلق الله سبحانه وتعالى، ناهيك عن الموعظة وذكر الموت، وما بعد الموت.. إضافة إلى الوصايا التي تشتمل على طرح مفاهيم اجتماعية من منظور إسلامي، وهكذا... إلى رسم منظومة متكاملة من الأسس والقواعد الدينية التي تمثل حضارة الإسلام بجميع الأبعاد. وإن اتسمت بالإجمال في كثير من الأحيان تبعاً لما تملي عليه

الظروف الخارجية.

ثم جاء من بعده الأئمة عليهم السلام يحذون حذوه ويأكدون على الكثير من الجوانب التي لم يتسن له عليه السلام طرحها بشكل كامل، كمفهوم الولاية العامة ـ التي هي الإمامة بالمنظور التشريعي ـ والولاية التكوينية والتشريعية، ومفاهيم الكفر والإسلام والإيمان، ونظريات التشبيه والتجسيم، والجبر والاختيار والأمر بين الأمرين، وغيرها من المفاهيم الشيعية التي تعتبر مما انفردت بها العدلية عن غيرهم.

وبعد ذلك التكامل في المفاهيم العقائدية بدأوا التركيز على الجانب الفقهي حيث تمّ طرح فكر فقهي متكامل يبدأ زمنه بعد واقعة كربلاء وينتهي بانتهاء الغيبة الصغرى، لتتكامل المدرسة الشيعية الفقهية أيضاً على حسب تدرج مراحل التبليغ الذي كان يقوم به الأئمة عليهم السلام كما سبقت الإشارة إليه، منضمة إلى مدرسة العقائد التي ذكرناها.

حتى بلغ أن نسبت للإمام الصادق عليه السلام مدرسة فقهية مما اضطر السلطات فيما يقارب عصر العسكريين عليهما السلام أن يجدوا من يقابل هذه المدرسة، بابتداع مدارس فقهية فصارت المذاهب الأربعة، وكلها مقابل تلك المدرسة المتكاملة المتنامية في عصور الأئمة عليهم السلام خصوصاً من بعد الإمام الصادق عليه السلام. وقد كانت حركة الإمام الصادق عليه السلام موطئة من حركة أبيه الباقر وجده الإمام زين العابدين عليهما السلام وما كانا عليه من الجرأة بعد واقعة الطف التي أعطتهما صفة المظلومية فهيأت له فرصة نشر الفكر فبدأ الإمام زين العابدين عليه السلام بنشر فكره عن طريق الدعاء، والإمام الباقر عليه السلام بتحركه في المجالات الاجتماعية لإعلان ما يريده من المفاهيم. حتى أُثر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه كان يقول: «كان أبي أجرأ على أهل المدينة منّي».

وعلى هذا التنامي في تأسيس هذه المدرسة بلغت الغيبة الصغرى وتلتها الغيبة الكبرى وقد تكامل للشيعة من الأصول والفروع كل ما يحتاجون إليه. وما كان ذلك إلا ما ذكرناه من الإشارة إلى ذلك الدور الهام الذي أداه الأئمة عليهم السلام على طول الفترة التي تقرب من ثلاثة قرون من الزمن.

والذي يدرس هذه الأدوار التثقيفية للأئمة عليهم السلام، وما عرضوه من الفكر الأصيل للشيعة في الأصول والفروع، يراه موجزاً بإيجاز غير مخل في الدور الذي قامت به فاطمة الزهراء عليها السلام رغم قصر الفترة التي أتيحت لها، وعمدته ما ألقته في خطبتها العصماء أمام المهاجرين والأنصار، حتى يمكن اعتبار تنشئة المفاهيم الإسلامية التي طرحها الأئمة عليهم السلام امتداداً لما طرحته الزهراء عليها السلام فاعتبر ذلك أساساً لجميع المفاهيم الشيعية التي أشرنا إليها إشارة عابرة، فنرى النظريات العقائدية في التوحيد، ونفي الشريك، والتجسيم، والرؤية، في كلامها بشكل واضح، بل الإشارة إلى مفاهيم الاختيار والجبر، والأمر بين الأمرين، التي تعتبر من المفاهيم المتأخرة الطرح، مع التأكيد على المفاهيم الأخرى، كعصمة الأنبياء، والإمامة، والمعاد، وغير ذلك، كل ذلك بسبك متميز واستشهاد بالآيات منعدم النظير. بل تعدّى الأمر إلى عرضها الفروع العشرة بإضافة عدد كبير من محاسن الأخلاق، ومساوئها، كلّ ذلك لم يعهد طرحه قبلها بهذا الشكل، وذلك دليل واضح على الوحدة المتكاملة التي ذكرناها آنفاً في أسس المفاهيم الشيعية الممتدة إلى العصور الأولى من التشريع.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. والحمد لله رب العالمين ■

المشرف العام

مع العلامة الطباطبائي ومقدمته في تفسير الميزان

د. محمد محمود زوين ●
كلية الفقه/ جامعة الكوفة

تمهيد

التفسير علم متخصص بالنبي وأهل بيته (صلوات الله عليهم)، وهم متخصصون به، ومن فسر القرآن فبما أخذ منهم وحمل عنهم، فالقواعد الكلية في التفسير والخطوط الكبرى قد أرساها النبي وأهل بيته صلى الله عليه وآله فهم ميزان بيان القرآن وهم عدل القرآن والاعتقاد بهذا القول ينهض شرطاً أساسياً في الفكر التفسيري.

ولقد اعتاد المفسرون أن يحددوا مقاصدهم التفسيرية في مقدماتهم التي كانت ولازالت مادة جيدة للدراسة والبحث.

ومن بين أفضل ما كتب من مقدمات تفسيرية مقدمة تفسير الميزان للعلامة محمد حسين الطباطبائي القاضي حيث توجب معايير البحث العلمي تقديمها لما فيها من تأصيل للفكر التفسيري على اختلاف مراحله، وبيان علل اختلاف المسالك التفسيرية عند المسلمين، والتي قامت أصلاً على اختلاف الأفكار والعقائد، وإيضاح ما يليق منها بالنص القرآني عن غيره وتأكيد القاعدة التي يجب الاستناد إليها والاتكاء عليها في الكشف عن المراد الإلهي من القرآن العظيم.

وبعبارة أخرى: أزعم أن هذه المقدمة كتبت بعد أن اطلع المفسر الطباطبائي ﷺ على كم وافر من التراث التفسيري على تنوعه في معالجته للنص والكشف عن الدلالات الإلهية، وتوافر المفسر ﷺ كذلك على دراسة خصوصيات المراحل التفسيرية على اختلاف أزمانها وأماكنها واستخلاص قيمتها، وتقييم أثرها في الاستدلال واستنباط المعاني المطلوبة، فضلاً عن ذلك فإنك تلحظ بوضوح الدقة في الرواية التفسيرية التي سعى إليها المفسر ﷺ وجسدها بالقواعد التفسيرية من جهة، وبيان نظرية الفكر التفسيري التي يؤدي تحققها العلمي من أي مفسر المقاربة الدالة في الكشف عن المراد الإلهي من النص المجيد، وأعني بذلك نظرية التفسير والتطبيق.

ومن الواجب ذكره أن الوقوف مع مقدمة العلامة ﷺ تقتضي مقاماً وزماناً يتناسب مع ما فيها من مفاصل حيوية متفرعة، وفروعها متشعبة وعليه فإن من الفائدة الإيجاز مراعاة للمقام.

المقدمة

تبدأ بالحمد والثناء والصلاة على النبي وآله، وهي سنة المفسرين في ابتداء مصنفاتهم ثم بيّن ﷺ أن هذه المقدمة الغرض منها التعريف بمنهج البحث في معاني آيات القرآن الكريم في هذا الكتاب بطريق الاختصار وعقب رحمه الله على ذلك بتعريف التفسير فقال: (هو بيان معاني الآيات القرآنية والكشف عن

مقاصدها ومداليلها)[1] ففي هذا التعريف يقف العلامة قدس سره مؤكداً معنى البيان والكشف عن المقاصد والدلالات على إطلاق الألفاظ من دون تقييدها باتجاه معين فكل ما يكشف به عن دلالات النص هو الغاية التي يسعى إليها، ولو قارنا هذا التعريف والبيان الاصطلاحي للفظ التفسير لوجدناه متميزاً من بين اصطلاحات المفسرين من عدة جهات أهمها:

الإيجاز في التعريف فضلاً عن أن التفسير عنده بيان من جهة وكشف من جهة أخرى، والبيان مرحلة قد تتصل بالمعاني الظاهرة أو المألوفة، والكشف ما يحتاج فيه إلى التأمل والتفكير وربط الظاهر بالباطن وماعدا ذلك من إقامة الفكر والاحتجاج له بالدليل.

ويعقب السيد قدس سره على التعريف بتأصيل التفسير، ويظهر أنه من أقدم الاشتغالات العلمية التي تنقل عن المسلمين من عصر نزول القرآن، وألمح قدس سره إلى أن الرسول صلى الله عليه وآله كان المفسر الأول للنص القرآني، وفي ذلك لطيفة فيما ألمح إليه وهي أن العلامة قدس سره يقرر في مقدمته أن ينهج منهج تفسير القرآن بالقرآن وعندما أشار إلى المفسر الأول للنص لم يأتنا برواية تؤكد هذا المعنى على الرغم من كثرة الروايات في ذلك بل جاءنا بآية وترك الرواية فنهج نهج تفسير القرآن بالقرآن من أول صفحة في تفسيره. قال تعالى: (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)[2].

ثم يقف الطباطبائي قدس سره عند التفسير بعد النبي صلى الله عليه وآله فيقول: (وقد كانت الطبقة الأولى من مفسري المسلمين جماعة من الصحابة - والمراد بهم غير علي عليه السلام فإن له وللأئمة من ولده نبأ آخر سنتعرض له - كابن عباس وعبد الله بن عمر وأبي وغيرهم)[3].

وهنا يبرز تساؤل القارئ لم أخرج المفسرون علياً عليه السلام من طبقة الصحابة، أوليس هو أبرز الصحابة وأحقهم بالتقديم في التفسير وغيره، وتأتي الإجابة من خلال سير المقدمة حيث تلحظ، أن الطباطبائي يشير ويلمح إلى وجود واقعي لمنظومتين في التفسير:

المنظومة الأولى: منظومة النبي وأهل بيته صلى الله عليه وآله، ومن سار على نهجهم.

المنظومة الثانية: منظومة الصحابة والتابعين، ومن اتبع مسالكهم.

المنظومة الأولى حجيتها نص القرآن، وسنة النبي صلى الله عليه وآله، والمنظومة الثانية لا حجة لها مطلقاً إلا بمقدار السير على ميزان وقواعد سنة النبي وأهل بيته، ولأجل هذا جعل الطباطبائي قدس سره أهل البيت عليهم السلام مع النبي صلى الله عليه وآله في مقام واحد، وإن كان فيهم من هو صحابي أو تابعي أو هو شاهد العصر إمامنا الحجة المنتظر (عجل الله فرجه) وبعبارة أخرى:

يعتقد جميع المهتمين بالنص القرآني بأن له خصائص مميزات يمتاز بها وأهمها أنه نص إلهي غير متناه في دلالته وغير محدود بزمان أو مكان فهو سرمدي البقاء حتى يوم القيامة وهو يحتاج إلى المبين الموضح الذي يتصف بصفات إلهية، قال تعالى: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)[4] وذلك لأجل أن يكون هناك تلاؤم وتناسب بين النص ومفسره، وإذا قلنا إن الصحابة

أو التابعين أو عامة الناس أمثالهم على اختلاف أزمانهم وأماكنهم ومقاماتهم هم المفسرون، لتفاوت الحال بين المفسر المحدود في العلم والامكانيات والزمان والمكان إلى غير ذلك مع النص غير المحدد والمتناهي في الدلالة.

وإذا قلنا بوجود من يتصف بالخصوصيات الإلهية التي تقابل مميزات النص القرآني، لوجدنا ذلك التقابل والانسجام والتواشج بين النص ومفسره ولذا فأهل البيت صلوات الله عليهم هم المفسرون الذين ينهلون العلم الوهبي اللدني منه تعالى، فهم في علومهم غير محدودين، وفي أعمارهم كذلك حيث أن من يمثل هذه المنظومة من أهل البيت حي حتى ما شاء الله تعالى، إذاً هم شفعاء القرآن، وعدل القرآن، بل هم القرآن الناطق كما قال إمام الموحدين عليه السلام: (أنا القرآن الناطق).

ومن خلال هذه الرؤية تجد إقامة لفكر تفسيري ينقض الكثير مما يشاع خطأ أو يعرف غلطاً على صعيد تفسير النص ومناهجه ورجاله، وأهم ذلك أن هذه الاطروحة تلغي وتنقض بقوة ما يزعم بوجود مدارس تفسيرية على أساس الأماكن والرجال، فقد ذهب الكثير إلى وجود مدارس تفسيرية متعددة منها بالكوفة وعلى رأسها ابن مسعود وفي مكة وكان على رأسها ابن عباس، وبالشام وعلى رأسها أبو الدرداء ومنها بالمدينة وتصدرها ثلاثة من أئمة أهل البيت عليهم السلام السجاد والباقر والصادق إلى غير ذلك من الكلام الذي نشر على صفحات هذه المجلة الغراء في عدد سابق، والحق والله العالم أن ذلك مردود وإنكاره واجب فيما أزعم من جهات عديدة مختلفة أهمها:

١ـ من غير الصحيح واللائق والموضوعي أن نجعل ثلاثة من أئمة أهل البيت عليهم السلام مقابل غيرهم مطلقاً فأهل البيت عليهم السلام لا يعدلون بغيرهم، ثم متى كان هناك أدنى تناسب فيما بينهم وبين غيرهم في نص أو بيان أو مقام لكي نجعلهم في حلبة واحدة.

٢ـ لم يكن في الأمصار التي ذكرت سوى درس تفسيري لم يرقَ لأن يكون مدرسة تحظى بالاختلاف في المادة والموضوع والأستاذ والطالب.

٣ـ إن هذا الأمر من التقسيم والتبويب لم ينقل عن القدامى أو المشتغلين بشؤون النص القرآني وإنما بدت بوادره عند المستشرقين ولاسيما المستشرق (جولد زيهر) في كتابه (مذاهب التفسير القرآني).

ومهما يكن من أمر فالتفسير قد اعتنى به مجموعة من الصحابة بعد النبي صلى الله عليه وآله ـ غير علي والأئمة عليهم السلام من بعده فإن لهم مقاماً آخر سيشير إليه العلامة لاحقاً ـ وكان من خصوصيات التفسير عند الصحابة:

١ـ أن البحث فيه يومئذ لا يتجاوز ما يرتبط من الآيات بجهاتها الأدبية.

٢ـ وشأن النزول.

٣ـ وقليل من الاستدلال بآية على أخرى.

٤ـ وكذلك قليل من التفسير بالمأثور عن النبي صلى الله عليه وآله في القصص ومعارف المبدأ والمصادر وغيرها.

هذه هي خصائص مرحلة الصحابة في التفسير والخطى نفسها سار تابعيهم عليها طوال قرنين من الزمان (فإنهم لم

يزيدوا على طريقة سلفهم من مفسري الصحابة شيئاً غير أنهم زادوا من التفسير بالروايات (وبينها روايات دسها اليهود أو غيرهم فأوردوها في القصص والمعارف الراجعة إلى الخلقة كابتداء السموات وتكوين الأرض والبحار أرم شداد وعثرات الأنبياء وتحريف الكتاب وأشياء أخر من هذا النوع، وقد كان يوجد بعض ذلك في المأثور عن الصحابة من التفسير والبحث)[٥].

فبعد أن انتهى قدس سره من الحديث الموجز عن مرحلة الصحابة أعقبه بالحديث عن التابعين رغبة منه قدس سره في تأصيل مراحل التفسير مع بيان خصائص كل مرحلة ويستوقف ذهن القارئ هنا المطابقة التفسيرية بين المرحلتين في الخصوصيات إلا أن التابعين تبنوا المنهج الأثري بشكل أكبر وأشمل وهذه الشمولية لم تخل من الأثر السلبي

على التفسير شكلاً ومضموناً، فإن في اعتمادهم على الروايات التي دسها اليهود نقصاً في ثقافتهم التفسيرية، وإلا ما معنى أن يتجه المفسر المسلم لموارد تفسيرية غير إسلامية فلا يكون ذلك إلا لحاجة سببها انعدام الرؤية التفسيرية عندهم، ثم تستوقفك عبارة الطباطبائي قدس سره (دسها اليهود أو غيرهم) فغيرهم كلمة عامة في دلالتها أرادها المؤلف فجاءت في مكانها بمعنى أن الذين دسوا الروايات غير الصحيحة والذين حرفوا وزيفوا كانوا ينسبون إلى الإسلام أيضاً، وأعمال التشويه والتضليل خير شاهد ودليل.

فضلاً عن ذلك فإنك ترى أن هذه الروايات كانت في موضوعات يغلب عليها الطابع الغيبي من قصص الأنبياء مع أقوامهم ومعارف المبدأ والمعاد.

ويؤكد العلامة قدس سره بعد ذلك أن هذا النوع من الروايات قد وجد عند الصحابة أيضاً، بمعنى أنه يسجل خصوصية جديدة للتفسير في مرحلة الصحابة أنهم رووا بعض الروايات التي لا صحة لها وهي مما يعرف بالإسرائيليات.

هذا هو المفصل الأول الذي تعرض له العلامة قدس سره في مقدمته فقد أراد أن يقدم فهماً للتفسير ويشير إلى قواعده ثم يوصل ذلك بمراحل التفسير بعد النبي صلى الله عليه وآله ويحدد ملامحها الموضوعية والعلمية من خلال نظر مفسر مفكر نقاد ■

---

(١) تفسير الميزان ١/ ٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥١.
(٣) تفسير الميزان ١/ ٤.
(٤) سورة النحل، الآية: ٤٤.
(٥) تفسير الميزان ١/ ٤.

لغة تميم..
في القرآن الكريم

مهدي الظالمي •
مشرف لغوي

ينابيع

القرآن المجيد دستور أمتنا الإسلامية الخالد، فهو مصدر شريعتها، وراسم خطوط منهج حياتها، وأهم مصدر من مصادر لغتها، ويرجع إليه اللغويون في قياساتهم والنحويون في تقعيد قواعدهم والبلاغيون في رسم حدود البلاغة والفصاحة والبيان، فهو في كل ذلك قمة تنحط دونها القمم، عجز البلغاء عن مجاراته، وفصحاء العرب أن يأتوا بشيء من مثله، ولا عجب فهو كلام الله العزيز نزل على رسوله العربي الأمين (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)[1].

فلغة القرآن إذن هي اللسان العربي المبين الذي اختاره الله وعاءً لمعجزة رسوله الخالدة فما طبيعة هذا اللسان؟ ولأي أصل ينتمي؟

أهو لهجة مكة المجرد من الإعراب، أي عاميتها؟ أم هو لغة قريش المحسنة لاتصالها بلغات القبائل الأخرى؟ أم هو لغة الحجاز دون غيرها من مناطق الجزيرة العربية؟ أم هو لسان العرب جميعاً في لغتهم الأدبية المشتركة؟

فإذا رسا مركبنا عند واحد من هذه التساؤلات، انطلقنا ـ بعدئذ ـ لنسأل ما موقع لغة تميم في هذا اللسان العربي المبين.

وفي جواب التساؤل الأول يطالعنا رأي بعض المستشرقين المرتبطين بالاستعمار الغربي الذين وجدوا في القرآن مركز الهدف الذي لو استطاعوا إصابته لأصابوا الإسلام - عدوهم - بالصميم، لأن القرآن يعد (أقوى الأدلة على صدق نبوة محمد ﷺ لما فيه من مفاهيم وأفكار وتشريعات وأخبار لا يمكن أن تكون وليدة عصر البعثة، أو من صنع شخص الرسول ﷺ)[٢].

يقول المستشرق الألماني (فولرز): (إن القرآن نزل أول مرة بلغة مكة المجردة من ظاهرة الإعراب، ثم نقحه العلماء على ما ارتضوه من قواعد ومقاييس حتى أضحى يقرأ بهذا البيان العذب الصافي، وغدا في الفصاحة مضرب الأمثال)[٣].

هذه الدعوى السيئة الصيت سرعان ما نقضها مستشرق ألماني آخر هو (نولدكة) الذي بنى رأيه على أساس من المقارنات اللغوية بين اللغات السامية، وأثبت أن الإعراب من خصائص العربية[٤].

أما القول بأن لغة القرآن هي لغة قريش المحسنة، نتيجة اتصالها بلغات العرب الأخرى فهو ما اتفق عليه اللغويون الأقدمون جميعاً قال به الفراء، وابن فارس، وابن جني، وابن منظور، والسيوطي وغيرهم كثيرون، وجاء المتأخرون من اللغويين، فساروا على الرأي نفسه، كالرافعي، ووافي، وطه حسين، وعبد العال مكرم، وعبد الرحمن السيد وآخرون[٥].

(مدعين أن العرب أخذوا هذه اللغة الفصيحة عن تلك القبيلة العظيمة وهم يبنون الدعوى على أسس من التاريخ الاجتماعي للقبائل العربية، إذ يقولون: إن قريشاً كانت لها من الأهمية في الجاهلية ما أغرى القبائل العربية الأخرى باتخاذ لهجتها لغة مشتركة للعرب جميعاً، فهم جيران الكعبة وسدنتها، وبقرب بلدهم - مكة - كانت سوق عكاظ أشهر أسواق الجاهلية، وأحفلها بالنشاط الأدبي، ولهم رحلتا الشتاء والصيف... ويقولون غير ذلك من الأسباب التي تبدو مقبولة لأول وهلة)[٦].

غير أن المحققين من اللغويين المحدثين - عرباً ومستشرقين - يذهبون إلى أن في الجزيرة العربية عشية نزول القرآن بيئتين لغويتين هما:

أولاً: بيئة لغوية عامة مشتركة يصطنعها الشعراء والخطباء والناثرون وهي اللغة الأدبية الفصحى (وتتمثل لنا واضحة المعالم في هذه النصوص الكثيرة التي تنتظم فيما تنتظم شعراً تعارفوا على تسميته بالشعر الجاهلي، وأرخوا له بقرن ونصف قبل البعثة المحمدية، وتنتظم أيضاً نثراً في خطب وأمثال)[٧].

ثانياً: وبجانب هذه البيئة اللغوية الموحدة العامة هناك بيئات لغوية خاصة هي لغات القبائل التي يصطنعها أفراد كل قبيلة لأداء أغراضهم اليومية والتخاطب فيما بينهم، (وهي تختلف فيما بينها اختلافاً يكبر أو يصغر حسبما يكون بينها من تقارب)[٨]. ألا أن هذه الاختلافات بين لغات القبائل أو بينها وبين اللغة الموحدة (لا تمس جوهر اللغة الواحدة من حيث البنية، ومن حيث الجذور ومن حيث الاشتقاق هي

اختلافات يسيرة)[٩].

فالعربية على هذا (شفعية التعبير منذ أن كانت، ذلك بأن فيها لغة فصيحة يتوخاها الكاتب في كتابته، وهي ملتزمة بضوابط الإعراب، ولغة أخرى يقولها الناس ويستعملونها دون أن يلزموا أنفسهم بعناء هذه الضوابط)[١٠].

أما ما طبيعة هذه اللغة وما مكوناتها الأساسية؟ ومن أي لغة أخذت؟

فـ(اللغة العربية الفصحى ليست لغة قريش ولا لغة غيرهم من القبائل العربية وإنما هي اختيار لا شعوري من لغة هؤلاء وهؤلاء حدث من احتكاك كثير من أفراد هذه القبائل في مواسم الحج والتجارة والأسواق الأدبية المختلفة فنتج عن هذا الاحتكاك الكبير بين القبائل ذلك الكيان اللغوي الذي عرفناه باللغة الفصحى)[١١].

فإذا كانت الفصيحة تنتسب إلى لغات العرب جميعاً ومنها تألفت وكان القرآن الكريم يمثل النموذج الأفضل لهذه اللغة التي عبر عنها القرآن بأنها اللسان العربي المبين. فلا عجب أن يكون في القرآن ما يقرب من خمسين لغة من هذه اللغات[١٢] في القراءات القرآنية المختلفة، لكننا نحن الذين لم يثبت لدينا أن القرآن نزل على سبعة أحرف سواء أكانت هذه الأحرف هي القراءات السبع أم لغات قبائل سبع، وإنما نزل على حرف واحد، وإننا نؤمن بهذه القراءة المتداولة بين الناس لأننا عبدنا بها لقولهم عليه السلام: (اقرأ كما يقرأ الناس) وقولهم (اقرأوا كما تعلمتم)[١٣].

ومعنى هذا إننا سنبحث آثار لغة تميم في هذا القرآن بقراءته المتداولة، ونعني به رواية حفص بن عاصم بن أبي النجود الكوفي عن أبي عبد الرحمن عبد الله السلمي التابعي عن عثمان وعلي وزيد وابن مسعود وأبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ولقد خلا القرآن الكريم الذي نقرأه من كثير من الخصائص التميمية مثل:

الكشكشة، والعنعنة وكسر حرف المضارعة - عدا الياء - التي شاركهم فيه كل القبائل العربية، عدا قريش وأسد[١٤]. كما خلا من بعض الظواهر التي كانت عند بعض بني تميم، كما خلت قراءتنا من الإمالة التي يتبعها كثير من العرب في قراءاتهم وفي مقدمتهم بنو تميم. يستثنى من ذلك إمالة الفتحة إلى الكسرة وإمالة الألف إلى الياء في قوله تعالى (بِاسْمِ اللّه مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا)[١٥].

ويعلل بعض اللغويين خلو اللغة العربية الفصحى والقرآن الكريم من هذه الخصائص بقوله: (كان ينبغي لها [أي الفصحى] أن تخلو من هذه الظواهر المحلية... وأن يكون المثل العربي المنشود في لغة القرآن بعيداً عن المحلية في الخصائص اللغوية بمثل ما هو بعيد عن المحلية في المضمون الفكري)[١٦].

أما الخصائص اللغوية التميمية التي نجدها في القرآن الكريم الذي بين أيدينا فهي:

١- تحقيق الهمز: أو ما يسمى بالنبر: وهو النطق بالهمزة نطقاً متميزاً وهو أن تنطق الهمزة نتيجة التقاء تام يحدث إغلاقاً لحظياً في أقصى الحنجرة يتبعه انفراج مفاجئ ليصدر هذا الصوت الذي نعرفه بالهمزة)[١٧].

(والكتب العربية تتحدث دائماً عن تحقيق الهمز وتنسبه إلى لهجة تميم، وعن تخفيف الهمز [أو تسهيله] أو نطق الهمزة بين بين [أو حذفها أحياناً] وتنسبه إلى لهجة الحجاز، وجاء التنزيل موافقاً للهجة تميم) لأن (أهل الحجاز وهذيل لا يهمزون)[١٨].

٢- ظاهرة الإتباع: والتي ترجمها الدكتور حجازي عن الإنكليزية (Vowel-Harmony) بالتوافق الحركي وترجمها (الدكتور إبراهيم أنيس) بالانسجام بين أصوات اللين. والذي يهمنا هنا هو ضمير الغائب (فقد اعتبر سيبويه أن الأصل في ضمير الغائب أن تعقبه ضمة طويلة وحدد سيبويه المواضع التي كسرت فيها هذه الهاء، فالهاء تكسر إذا كان قبلها ياء أو كسرة، فهذه الظاهرة إذن من ظواهر المماثلة ولكنها طويلة أتت بكسرة بعد الهاء، وهذا طرف من التوافق الحركي، ويبدو أن التوافق الحركي كان من خصائص لهجة تميم، وهو ما نجده في الفصحى بينما لهجة الحجاز بعيدة عن التوافق الحركي)[١٩].

فنحن نقرأ مثلاً: (وخسفنا به وبداره الأرض) يقرأها أهل الحجاز (وخسفنا بهو وبدارهو الأرض) وجاء التنزيل في هذا الجانب موافقاً للغة تميم، إلا في آية واحدة هي قوله تعالى: (وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللّه)[٢٠].

٣- وهناك كلمات قرآنية كثيرة جاءت موافقة للغة تميم من حيث اللفظ ومن حيث الضبط الصرفي أو من حيث الصوت أو الدلالة أو التذكير والتأنيث نستطيع أن نجد منها في القرآن الكريم ما يأتي[٢١]:

١- اتخذت: أهل تميم تقول: اتخذت، وأهل الحجاز يقولون: تخذت ووخذت. وجاء في القرآن موافقاً للغة تميم فيها كقوله تعالى: (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللّه وَلَدًا)[٢٢]. وجاءت في القرآن الكريم هي ومشتقاتها وتصريفاتها (١٢٤) مرة.

٢- بئس: أهل الحجاز يقولون: بئس أو بيس: فعل للذم أخذ من البؤس. وتميم تقول: بئس بكسر الباء وإسكان الهمزة ثم أخذت العرب عامة عن تميم. قال تعالى: (وَمَأْوَاهُمْ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ)[٢٣]، وجاءت في القرآن (٤٢) مرة ويقرأ أهل الحجاز: (ولبيس المهاد)[٢٤].

٣- البخل: أهل الحجاز يقولونها بضمتين (البُخُل) ولغة تميم: (البُخْل) بإسكان الخاء، وقد جاء بها التنزيل: (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ)[٢٥].

٤- برئ: أهل الحجاز يقولون برئت من المرض بَرءاً بالفتح وأنا منه براء بفتح الباء وتميم ونجد وسائر العرب يقولون برئت من المرض بُرءاً بضم الباء وأنا منه بريء.

وجاءت اللغتان في القرآن الكريم، جاءت لغة تميم (بريء) (١٢) مرة. ومنها قوله تعالى: (إِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)[٢٦] وجاءت لغة الحجاز مرة واحدة في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ)[٢٧].

٥- بشَّر: تميم تقول: بشَّر يبشِّر بالتشديد، وكنانة تقول: بشَر يبشر من غير تشديد وجاء التنزيل موافقاً لتميم كقوله تعالى: (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ)[٢٨] وجاءت هي ومشتقاتها (٣٠) مرة.

٦- أسوة: تميم وبعض قيس يقولون: أُسوة بضم الألف وأهل الحجاز وأسد يقولون إسوة بكسر الألف (لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)[٢٩].

٧- جنبني - أجنُبني: أهل الحجاز يقولون: جنبني، وأهل نجد: أجنُبني، وبه جاء التنزيل (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ)[٣٠].

٨- الحصاد: مصدر حصد وهو بفتح الحاء في لغة نجد وتميم وبكسرها لغة أهل الحجاز وجاء القرآن متفقاً مع تميم، قال تعالى: (كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ)[٣١].

٩- يستحي: أهل الحجاز يقولونها بيائين وعامة العرب وبنو تميم يقولونها بياء واحدة وعليه جاء التنزيل: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)[٣٢].

١٠- الدنيا: قال أبو بكر السراج في المقصور والممدود: الدنيا مؤنثة مقصورة وتكتب بالألف هذه لغة نجد وتميم خاصة إلا أن أهل الحجاز وبني أسد يلحقونها ونظائرها بالمصادر ذوات الواو فيقولون دنوى مثل شروى، وعلى ما يوافق لغة تميم جاء التنزيل كقوله تعالى: (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ)[٣٣].

١١- صعَّر: مشددة العين هي لغة بني تميم وبها جاء القرآن الكريم: (وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ)[٣٤]. أما لغة أهل الحجاز فهي (صاعر).

١٢- الضعف: بفتح الضاد لغة تميم وبها جاء التنزيل (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً)[٣٥]، وقريش ينطقونها بالضم (ضُعف).

١٣- العُذْر: لغة تميم بإسكان الذال على التخفيف وبها جاء التنزيل، قال تعالى: (فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا)[٣٦].

١٤- نعم: أصله نَعِم وبه تقول قريش وهو فعل للمدح، وتميم تقول: نِعْمَ بكسر الفاء وإسكان العين وعنهم

أخذته العرب. جاء في القرآن (١٨) مرة على لغة تميم منها: (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)[٣٧].

١٥- ميسَرة: أهل الحجاز يقولون (ميسُرة) بضم السين، وتميم وأهل نجد يقولون (ميسَرة) بفتح السين وبها جاء التنزيل: (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ)[٣٨].

١٦- أهل الحجاز يجمعون (أسير) على أسارى وتميم تجمعه على أسرى وكلا اللغتين جاءت في القرآن الكريم فلغة قريش جاءت في قوله تعالى: (وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ...)[٣٩]، ولغة تميم جاءت مرتين أحداهما (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى)[٤٠] والثانية (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ الأَسْرَى)[٤١].

١٧- بقَر: أهل الحجاز يؤنثون فيقولون هذه بقر وكذلك كل جمع كان واحده الهاء وجمعه بطرح الهاء من نحو: نخل، ونحل، ونمل. أما تميم وأهل نجد فيذكرون، قال تعالى: (إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا)[٤٢].

١٨- النخل: جاء في القرآن مذكراً على لغة تميم في قوله تعالى: (كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ)[٤٣]. وجاء مؤنثاً على لغة أهل الحجاز في قوله تعالى: (وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ)[٤٤].

١٩- وكذلك الطريق، وجاء في التنزيل أيضاً موافقاً لتميم في قوله تعالى: (يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ)[٤٥].

٢٠- وتميم وسائر العرب يقولون هو الذهب فيذكرون وأهل الحجاز يقولون هي الذهب فيؤنثون، قال تعالى: (فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ)[٤٦].

٢١- أما تحقيق الهمز فسنأخذ له الأمثلة الآتية:

رأس: تميم تقول بالهمز وأهل الحجاز يخففون، فيقون راس، (قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي)[٤٧].

٢٢- مستهزئون: ترك الهمزة لغة قريش وعامة غطفان وكنانة بعضهم يجعلها بمنزلة يستقصون ويستعدون بحذفها. والقرآن بإثباتها على لغة تميم (قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)[٤٨].

٢٣- سَأل: سال - يسال - سل بغير همزة لغة قريش وأهل الحجاز، وبنو تميم: سأل - يسأل - اسأل، وجاءت على لغة قريش مرتين (سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ..)[٤٩]، و(سَلْهُم أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ)[٥٠].

وجاءت هي ومشتقاتها على لغة تميم (١٣٢) مرة منها: (وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا)[٥١].

٢٤- الصراط: أهل الحجاز يقولون: السراط بالسين ويؤنثون وبنو تميم يقولون صراط بالصاد ويذكرون وبها جاء التنزيل: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)[٥٢].

٢٥- سرابيل: القمص بلغة تميم وبلغة كنانة الدروع وجاءت اللغتان في آية واحدة وهي قوله: (وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ)[٥٣]، الأولى بلغة تميم، وسرابيل الثانية بلغة كنانة.

٢٦- خرص: يخرص: كذب بلغة تميم قال تعالى: (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ)[٥٤] جاءت أربع مرات.

٢٧- خشع: في لغة تميم اقشعر، قال

تعالى: (أَلَمْ يَئْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)[٥٥].

٢٨- الأَمة: النسيان بلغة تميم وقيس عيلان (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ)[٥٦].

٢٩- آسن: نتن بلغة تميم قال تعالى: (مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ)[٥٧].

٣٠- البغي: الحسد بلغة تميم ومنه قوله تعالى: (بَغْيًا بَيْنَهُمْ)[٥٨].

٣١- يحسَب: بفتح السين عند تميم وعند غيرهم بالكسر (يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ)[٦٠].

٣٢- جنح: يجنح من باب فتح عند تميم، وعند قريش بضم النون في المضارع، وجاء القرآن على لغة تميم: (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا)[٦٠].

٣٣- تميم تقول: عرض: من باب ضرب، وبها جاء القرآن: (ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ)[٦١]، وقريش تقول: عرض من باب علم.

٣٤- الصدفين: قال أبو عبيدة الجبلين بلغة تميم(٦٢) قال تعالى: (حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ...)[٦٣].

٣٥- أهل الحجاز يقولون: لات الشيء يَليته إذا أنقصه حقه، وتميم الاته يليته، واللغتان في القرآن، فمن الأولى قوله تعالى: (لاَ يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا)[٦٤]، وفي الثانية قوله تعالى: (وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)[٦٥].

٣٦- الحجاز: أيهات، وتميم هيهات، وجاءت في القرآن على لغة تميم في قوله تعالى (هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ)[٦٦].

وهناك ثلاث كلمات وإن لم أجد من نسبها إلى تميم، لكن أغلب الظن أنها من لغتهم لأنها من لغة البصرة، ومنطقة البصرة تقع ضمن الرقعة الجغرافية التي تفترشها مضارب تميم والتي تمتد من نجد إلى الغري في بلاد الكوفة والى البصرة واليمامة فقطر فعمان، وهذه الكلمات[٦٧]:

أ - أهل مكة يسمون القدر برمة، وأهل البصرة يسمونها قدراً وهي موافقة للغة القرآن، قال تعالى: (وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ)[٦٨].

ب - أهل مكة يسمون البيت إذا كان فوق البيت عليّة، على حين يسميها أهل البصرة غرفة، وهي توافق ما في القرآن: (غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ)[٦٩].

ج - يسمي أهل مكة الطلع الكافور والاغريض ويسميه أهل البصرة (الطلع) وجاءت لغة القرآن موافقة للغة أهل البصرة: (وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ)[٧٠].

أما في القواعد النحوية فلغة القرآن تميل إلى لغة الحجاز، فالفروق النحوية القليلة بين اللغتين لم يظهر من لغة تميم في القرآن الكريم منها شيء، وأخذ القرآن بلغة الحجاز في (ما) النافية وعاملها معاملة (ليس) في نصب الخبر، ولهذا سميت (ما) الحجازية وجاء ذلك واضحاً في ثلاث آيات في قوله تعالى: (مَا هَذَا بَشَرًا)[٧١] و(مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ)[٧٢] و(فَمَا

مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)[٧٣].

أما تميم فيعاملونها معاملة (هل) غير العاملة.

وكذلك أخذ بلغة الحجاز في (هلمَّ) الذي (أجراه الحجازيون مجرى: صه، ومه، ورويد،... وتميم يلحقونها علم التثنية والتأنيث والجمع)[٧٤]. وجاء القرآن على لغة الحجاز، قال تعالى: (...وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا)[٧٥].

وأخذ القرآن أيضاً بلغة الحجاز وغيرهم في الاستثناء المنقطع (فإنه عند جميع العرب بالنصب إلا عند بني تميم فإنه يتبعون في المنقطع المنفي)، قال شاعرهم:

وبلدة ليس بها أنيس
إلا اليعافير وإلا العيس

فقد جاء في القرآن: (وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ)[٧٦].

الآن وقد شارف البحث إلى نهايته فقد اتضحت لنا الحقائق الآتية:

١- القول بأن القرآن نزل بلهجة مكة المجردة من الإعراب كان قولاً استعمارياً بغيضاً هدفه النيل من معجزة الإسلام الخالد (القرآن الكريم) وقد قبر في مهده والحمد لله.

٢- القول بأن القرآن نزل بلغة الحجاز أو لغة قريش وحدها أصبح رأياً تجاوزه الدرس اللغوي المعاصر على الرغم من كثرة القائلين به.

٣- إن ما توصل إليه المحققون من الباحثين في اللغة العربية هو أن لغة القرآن لا تعكس لغة بعينها وإنما تعكس اللغة العربية الفصيحة المشتركة بين القبائل والتي هي مزيج من لغات القبائل العربية المختلفة والتي تعكس خصائص تلك اللغات.

٤- أن لغة تميم احتلت من القرآن مكاناً بارزاً يأتي بعد قريش مباشرة.

٥- أن النحو القرآني يميل إلى الأخذ بالقواعد النحوية الحجازية ويبتعد عن قواعد تميم النحوية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ■

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٩٣-٩٥.
(٢) المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن، محمد باقر الحكيم، ص٤٨.
(٣) دراسات في فقه اللغة العربية، د. صبحي الصالح، ص١١٣.
(٤) يلاحظ رأيه ورأي فولرز أيضاً في (علم اللغة العربية)، د. محمود فهمي الحجازي، ص٢٣٧.
(٥) ذكر د. إبراهيم السامرائي في اللغة بين أمسها وحاضرها آراء عدد كبير من الأقدمين وما شايعهم من المحدثين، ص٥٣-٥٤.
(٦) الأصول، د. تمام حسان، ص٧٤، ويناقش بأدلة موضوعية هذا الإدعاء ويفنده.
(٧) اللهجات العربية في القراءات القرآنية، د. عبده الدراجي.
(٨) نفس المصدر والصفحة.
(٩) ظواهر لغوية في المسيرة التاريخية للغة العربية، د. عبد العال سالم مكرم، ص٤٥.
(١٠) التطور اللغوي التاريخي، إبراهيم السامرائي، ص٦٢.
(١١) ملامح من تاريخ اللغة العربية، د. أحمد نصيف الجنابي، ص٢٣-٢٤.
(١٢) البيان في تفسير القرآن، السيد الخوئي، ص١٣٠.
(١٣) المصدر نفسه، ص١١٨.
(١٤) الدراسات اللهجية والصوتية، د. حسام

سعيد النعيمي، ص٢١٨.
(١٥) سورة هود، الآية: ٤١.
(١٦) علم اللغة العربية، د. محمود حجازي، ص٢٣٦-٢٣٧، دراسات في فقه اللغة العربية، د. صبحي الصالح، ص٧٢.
(١٧) اللغة عبر العصور، حجازي، ص٣٥.
(١٨) لهجة تميم وأثرها في اللغة الموحدة، غالب فاضل المطلبي، ص٤٨.
(١٩) اللغة العربية عبر العصور، د. محمود حجازي.
(٢٠) سورة الفتح، الآية: ١٠.
(٢١) أكثر هذه الألفاظ أخذتها من بحث للأستاذ غالب فاضل المطلبي نشره في مجلة المورد التراثية، المجلد السابع، العدد الثالث، ١٩٧٨م، بعنوان (معجم لهجة تميم).
(٢٢) سورة البقرة، الآية: ١١٦.
(٢٣) سورة النور، الآية: ٥٧.
(٢٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠٦.
(٢٥) سورة النساء، الآية: ٣٧.
(٢٦) سورة الأنعام، الآية: ٧٨.
(٢٧) سورة الأنعام، الآية: ٦.
(٢٨) سورة الصافات، الآية: ١٠١.
(٢٩) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٣٠) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.
(٣١) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.
(٣٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦.
(٣٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.
(٣٤) سورة لقمان، الآية: ٤٨.
(٣٥) سورة الروم، الآية: ٥٤.
(٣٦) سورة الكهف، الآية: ٧٦.
(٣٧) سورة الصافات، الآية: ٧٥.
(٣٨) سورة البقرة، الآية: ٢٨٠.
(٣٩) سورة البقرة، الآية: ٨٥.
(٤٠) سورة الأنفال، الآية: ٦٧.
(٤١) سورة الأنفال، الآية: ٧٠.
(٤٢) سورة البقرة، الآية: ٧٠.
(٤٣) سورة القمر، الآية: ٢٠.
(٤٤) سورة الرحمن، الآية: ١١.
(٤٥) سورة الأحقاف، الآية: ٣٠.
(٤٦) سورة آل عمران، الآية: ١٩.
(٤٧) سورة طه، الآية: ٩٤.
(٤٨) سورة البقرة، الآية: ١٤.
(٤٩) سورة البقرة، الآية: ٢١١.
(٥٠) سورة القلم، الآية: ٤٠.
(٥١) سورة يوسف، الآية: ٨٢.
(٥٢) سورة الفاتحة، الآية: ٦.
(٥٣) سورة النحل، الآية: ٨١.
(٥٤) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.
(٥٥) سورة الحديد، الآية: ١٦.
(٥٦) سورة يوسف، الآية: ٤٥، هذه وما بعدها من كتاب (لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة)، غالب فاضل المطلبي.
(٥٧) سورة محمد، الآية: ١٥.
(٥٨) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٥٩) سورة الهمزة، الآية: ٣.
(٦٠) سورة الأنفال، الآية: ٦١.
(٦١) سورة البقرة، الآية: ٣١.
(٦٢) ظواهر لغوية من المسيرة التاريخية للغة العربية قبل الإسلام، د. عبد العال سالم مكرم، ص٧٤.
(٦٣) سورة الكهف، الآية: ٩٦.
(٦٤) سورة الحجرات، الآية: ١٤.
(٦٥) سورة الطور الآية: ٢١، دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، ص٨٣.
(٦٦) سورة المؤمنون، الآية: ٣٦، المصدر نفسه، ص٨٤.
(٦٧) البيان والتبيين، الجاحظ، ١٧/١، طبعة دار الفكر للجميع.
(٦٨) سورة سبأ، الآية: ١٣.
(٦٩) سورة الزمر، الآية: ٢٠.
(٧٠) سورة الشعراء، الآية: ١٤٨.
(٧١) سورة يوسف، الآية: ٣١.
(٧٢) سورة المجادلة، الآية: ٢.
(٧٣) سورة الحاقة، الآية: ٤٩.
(٧٤) الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، د. حسام سعيد النعيمي، ص١٤٣.
(٧٥) سورة الأنعام، الآية: ١٥.
(٧٦) سورة النساء، الآية: ١٥٧، دراسات في قواعد اللغة العربية، الشيخ عبد المهدي مطر، ٦٠/٢.

الهـــاشمية..

عاصمة الماضي.. مدينة الحاضر

على نهر الفرات يغفو قضاء الهاشـمية وهو يتنسـم عليل الهواء، وشـذى البسـاتين الغنّـاء، وتتداخل أحياناً بين قراه ونواحيه.. لازالت رؤى الماضي ماثلة بين جفنيه بكل ما تحمله من أفراح وأحزان.. ففي عهد مضى كان عاصمة لدولة ملكت شرق الأرض وغربها.. وبين ظهور وضمور تنوع دوره وتشكلت أنماط الحياة الاجتماعية فيه...

واليوم أصبح قضاءً تسوده العلاقات الأسرية والعشائرية الطيّبة..

بين الأمس واليوم كانت رحلتنا.. فما حديث تلك الرحلة؟

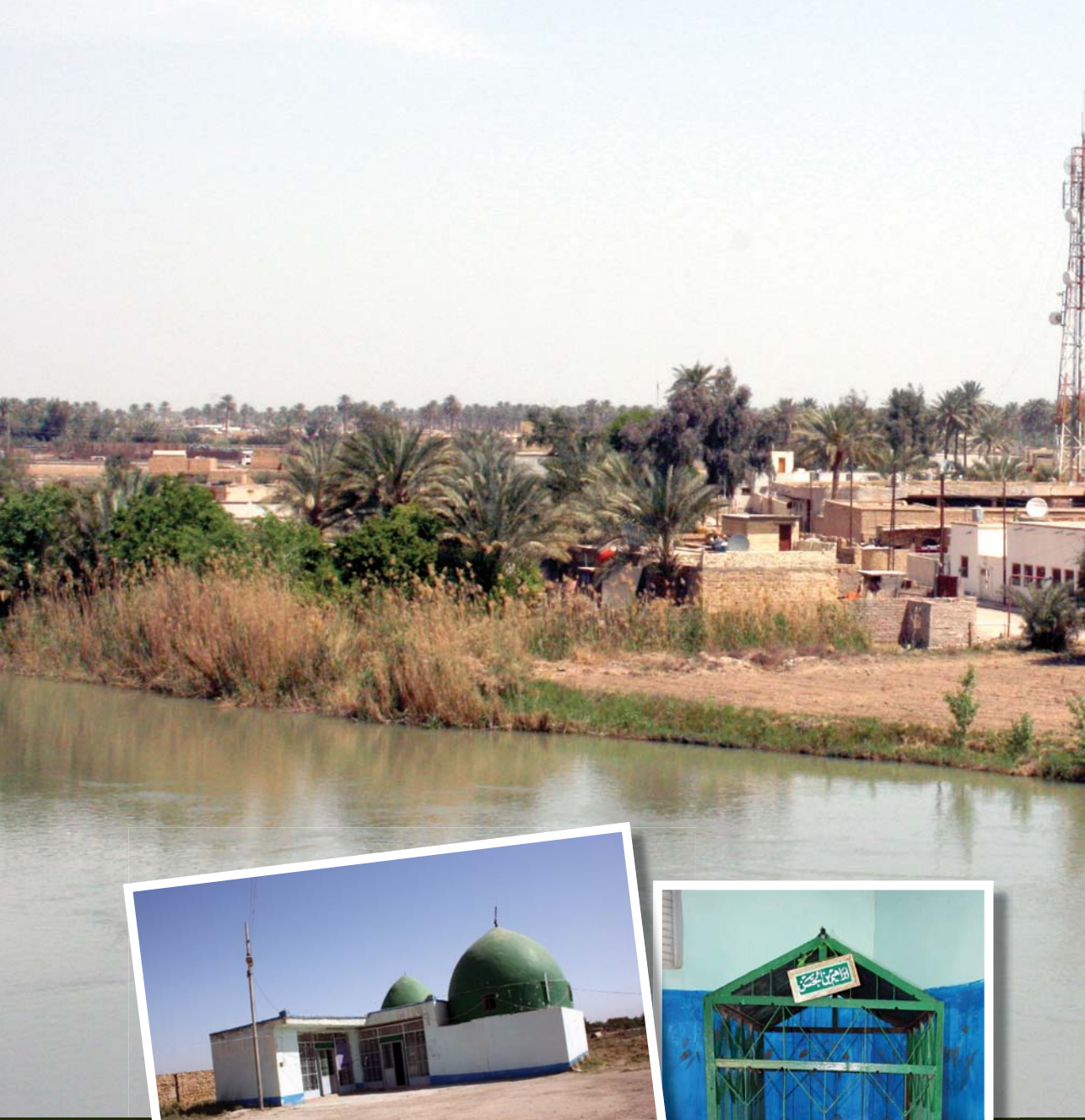

استطلاع: حيدر الجد •
تصوير: ضرغام كمونة •

ينابيع

من يتصفح كتب التاريخ، يجد الكثير من المدن التي قامت في مكان ما وازدهرت بفعل الكثافة السكانية التي حلت فيها طلباً وتبعاً للخيرات والموقع المميز التي تتمتع بها هذه المدينة أو تلك، إلا أن استمرارها مشروط بتوفر سبل العيش فيها فكم من مدينة بلغت شأناً عالياً في الرقي والتقدم ثم ما لبثت حتى صيرتها الحوادث أطلالاً فلم يبق منها سوى الاسم، ويمضي الزمان وتتعاقب الأجيال إلا أن الاسم هو الشاخص الباقي من الماضي وهذا ما حصل لمدينة الهاشمية، الأرض التي اختارها أول الخلفاء العباسيين، أبو العباس السفاح، ولم ينزل دمشق عاصمة الأمويين الذين جلاهم عن الحكم، كما لم يتخذ الكوفة ـ عاصمة الخليفة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ابن العم الذي كان يمتدحه هو وأخوه المنصور ويقتات على ما تبذله الأيدي له حباً لعلي عليه السلام وآل علي ـ منزلاً له، فطفق يبحث عن مكان يبعد عن دمشق ويقرب من الكوفة وكان له ما أراد، فقد وجد ضالته على شاطئ الفرات حيث تفيض الخيرات وتنعم الأرض بالبركة وهي تروي ظمأها من هذا النهر الطاهر.

قامت الهاشمية عاصمة لعهد جديد وخليفة جديد واسم منسوب لهاشم الجد الأعلى للخليفة فاستبشر الناس وفاقهم فرحاً آل علي عليه السلام حيث أبناء العم أصبحوا يديرون شؤون الأمة إلا أنهم لم يعلموا علام انطوت النيات وماذا سيخبأ لهم القدر!! وهكذا بمرور أشهر أصبحت الهاشمية حبساً مؤبداً لآل الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام ومن ثم مقبرة جماعية ضمت رفات تلك الأجساد الطاهرة، ثم تنكرت لها الدنيا وأفل نجمها بعد أن حلت محلها بغداد. واليوم عادت مدينة لها وجودها حيث شكلت قضاءً مهماً من أقضية العراق يضم نواح وقرى عديدة زرناه واتخذنا من زيارتنا له مادة لاستطلاع مجلتنا في هذا العدد.

ما قبل نشوء الهاشمية

دبّ الضعف في جسد الدولة الأموية خصوصاً عندما استشرى الظلم والتعسف في المجتمع الإسلامي، ففي الوقت الذي كان فيه الخليفة منغمساً بملذاته وفجوره، يتنقل بين كؤوس الخمر وأحضان الجواري والحفلات الصاخبة كان الشعب يعاني من مرارة العيش وتردي الوضع الاجتماعي العام، لذا فقد أحدث هذا الوضع سخطاً لدى الطبقات الاجتماعية الوسطى والضعيفة فارتفعت الأصوات المنادية بالتغيير بين الآونة والأخرى هذا والعلويون بين الناس، يرون فيهم حسن الخلق، وطيب السجية وقوة الإرادة إضافة للنسب الوضاح فاشرأبت الأعناق ورنت النواظر نحوهم كي يتسنموا المناصب العليا في دولة العدل التي تهفو لها نفوس الرعية، إيذاناً ببدء عهد جديد يزيح غبار الحكم الأموي الذي خنق الصغير والكبير.

أما العباسيون وهم ذرية (علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب) فقد كانت نفوسهم تتطلع إلى الخلافة وتميل إلى اعتلاء العرش إلا أنهم كانوا يدركون تماماً ميل الناس نحو آل علي عليه السلام، فهم الثائرون بوجه الظلم

تل السفاح الأثري.. بقايا الهاشمية التي أسسها أبو العباس السفاح
وتبدو قبة السيدة خديجة من أحفاد أبي الفضل العباس

والظالمين، فكربلاء لازالت تلقي بظلالها على أحاديث المجتمع، أضف لذلك ماأفرزته الثورات العلوية المستمرة، في حين لم يسجل التاريخ حركة واحدة قام بها بنو العباس، بل لم تذكر الروايات التاريخية موقفاً لأي عباسي في واقعة الطف عدا موقف ابن عباس المتمثل بإشارته على الإمام الحسين عليه السلام في عدم التوجه إلى الكوفة.

لقد وضع الأمويون بني العباس في الحميمة، وهي قرية من أرض الشراة قرب معان، بالبلقاء و(الحميمة هي القرية التي أهداها عبد الملك بن مروان لعلي بن عبد الله بن عباس ـ جد العباسيين ـ لترضيه)[1].

وبذلك فقد حصل عبد الملك على هدفين برمية واحدة حيث أرضى علي بن عبد الله بما وهبه له، وحصر العباسيين في موضع واحد، بالقرب من عاصمته دمشق، حتى يعد عليهم تحركاته ويكونوا تحت نظر جواسيسه وعيونه، فيأمن شرهم ويسحق تمردهم إذا ما لمح ذلك أو سمع به وهذا ما لمحه مروان بن محمد المعروف بـ(الحمار)، آخر الخلفاء الأمويين، في إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فقد توجس خيفة من تحركاته حيث استغل إبراهيم ضعف الدولة الأموية فراح يمهد لفكرة خلافة بني العباس، لذا فقد (قبض مروان على إبراهيم في الحميمة وسجنه في حران وتوفي سجيناً وكان قد عهد إلى أخيه ـ حين علم بمصيره ـ أبي العباس السفاح بالإمامة وأمره بالرحيل إلى الكوفة فذهبوا إليها حيث تلقاهم رئيس الدعوة أبو سلمة الخلال وأنزلهم في منزل سري)[2].

لقد مهد لحكم العباسيين شخصان أبو سلمة الخلال وأبو مسلم الخراساني فقد تردد الأول في دعوته بين بني العباس وبني علي عليه السلام، إلا أنه وضع أمام عينيه ميل الكوفيين إلى العلويين، ومع ذلك فقد جعل الأمر لبني العباس الذين

نهر الفرات الذي يخترق مركز القضاء..
وتظهر سكة القطار الرابطة بين بغداد والبصرة

لن ينسوا موقفه تجاههم ولكن كان جزاؤه منهم القتل!!، أما أبو مسلم (فقد تولى المركز الرئيسي في خراسان ونجح في إعداد جيش عباسي كثيف، ما لبث أن هزم به جيش الخليفة الأموي الأخير مروان بن محمد عند نهر الزاب - فرع من فروع نهر الفرات - وانتهى الأمر بمقتل مروان وما لبث أن ظهر السواد شعار العباسيين في الكوفة في العاشر من المحرم سنة (١٣٢هـ)، فكان هذا إعلاناً عن سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية)[٣] وبويع عبد الله السفاح خليفة للمسلمين يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة (١٣٢هـ).

ويقول الباحث هشام جعيط في تناوله مدينة الكوفة على الصعيد المديني: (تعرضت الكوفة لتغيرات عميقة في العصر العباسي فالخلفاء العباسيون الأوائل كانوا ينوون جعلها عاصمة لخلافتهم فأقاموا فيها فترة وجيزة من الزمن، غير أن تعاطف هذه المدينة العام مع علي والتيار القوي المؤيد له فيها جعلهم يترددون بينها وبين الأنبار، ومدينة الهاشمية الجديدة المتصلة بقصر ابن هبيرة... وهذا يعني أن الكوفة لعبت دور العاصمة الإدارية للخلافة العباسية حتى ولو لم يكن الخلفاء العباسيون يقيمون فيها على الدوام)[٤].

ويؤيده في رأيه الباحث قصي الحسين حيث يقول: (ولم يطمئن أبو العباس السفاح إلى أهل الكوفة وهم أصحاب علي ولم يركن إليهم في الأمور فانتقل إلى الأنبار واتخذها مقراً سماه الهاشمية نسبة إلى هاشم جد العباسيين)[٥].

الهاشمية العاصمة الجديدة

وكما أسلفنا فإن أبا العباس السفاح لم يطمئن إلى أهل الكوفة ولم يرَ في

الابتعاد عن الكوفة صلاحاً فاختار مكاناً قريب من الكوفة حيث يقول ياقوت في معجمه: (انتقل - أي: أبو جعفر المنصور - إلى الهاشمية وهي مدينة كان قد اختطها أخوه أبو العباس السفاح قرب الكوفة... ثم يضيف: وكان سبب عمارتها - أي بغداد - أن أهل الكوفة كانوا يفسدون جنده فبلغه ذلك من فعلهم فانتقل عنهم يرتاد موضعاً)[٦].

كما ويذكر سبباً آخر في نشوء الهاشمية فيقول عند تعرضه لقصر ابن هبيرة: (ينسب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة... كان لما ولي العراق من قبل مروان بن محمد بن مروان بنى على فرات الكوفة مدينة فنزلها ولم يستتمها حتى كتب إليه مروان يأمره بالاجتناب عن مجاورة أهل الكوفة فتركها وبنى قصره المعروف به بالقرب من جسر سورا، فلما ملك السفاح نزله واستتم تسقيف مقاصير فيه وزاد في بنائه وسماه الهاشمية وكان الناس لا يقولون إلا قصر ابن هبيرة على عادة الأولى، فقال: ما أرى ذكر ابن هبيرة يسقط عنه فرفضه وبنى حياله مدينة نزلها أيضاً المنصور واستتم بناء كان قد بقي فيها وزاد فيها أشياء وجعلها على ما أراد ثم تحول منها إلى بغداد...)[٧].

وقد حصل خلط كثير في التاريخ فبين من يذكر أن الهاشمية مدينة بناها أبو العباس السفاح وجعلها عاصمة له كما بينا ذلك أعلاه وبين من يذكر أن الهاشمية هو قصر ابتناه السفاح في الأنبار فقد ذكر اليعقوبي في تاريخه: (وانتقل أبو العباس من الحيرة فنزل الأنبار واتخذ بها مدينة سماها الهاشمية سنة (١٣٤هـ) واستشرى من الناس أشرية كثيرة بنى فيها واقطعها أهل بيته وقواده)[٨].

في النص أعلاه نلحظ ما يلي:

حسينية قضاء الهاشمية الكبرى

١- لم يرد ذكر للكوفة فقد ذكر اليعقوبي أن أبا العباس انتقل من الحيرة ونزل الأنبار وهذا خلاف ما ذكره الرواة والمؤرخون من أن البيعة لبني العباس انطلقت من الكوفة وكانت الكوفة المهد الأول الذي احتضن دولة بني العباس الفتية.

٢- ركز اليعقوبي على أن الهاشمية كانت موجودة ضمن أراضي الأنبار أي لم تقم مدينة جديدة ببناء جديد بل هي مدينة كانت قائمة إلا أن أبا العباس تملك دورها وأطلق عليها التسمية الجديدة (الهاشمية) نسبة إلى هاشم.

٣- تم انتخاب أبي العباس في سنة (١٣٢هـ) واتخذ الهاشمية عاصمة سنة (١٣٤هـ) أي بعد مضي سنتين من حكمه ولم يذكر لنا اليعقوبي أين قضى أبو العباس هذه الفترة من حكمه هل كانت في الحيرة أم في الكوفة؟!.

وحسب متابعتي للروايات فإني أرى (أن أبا العباس كان في الكوفة عند بيعة الناس له ثم انتقل إلى الحيرة ابتعاداً عن الموالين للعلويين والذين زاد سخطهم على تولي بني العباس دست الحكم، ثم ارتأى الانتقال إلى مدينة الهاشمية وهنا يفترق المؤرخون إلى فرقتين، فرقة تقول بموت أبي العباس في الهاشمية ودفنه فيها وأخرى تقول إنه ترك الهاشمية وانتقل إلى الأنبار وبها توفي).

وفي ليلة الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة (١٣٦هـ) توفي أبو العباس السفاح متأثراً بمرض الجدري وعمره اثنان وثلاثون سنة ودفن على تل بالقرب من المدينة الحالية ومازال التل مثبتاً على الخرائط التي رسمها البريطانيون عند احتلالهم للعراق سنة (١٩١٧م) يعرف بـ(تل السفاح) وخلفه في أمر المسلمين شقيقه المنصور... الذي قرر ترك مركز الحكم (الهاشمية) والتوجه لبناء المدينة المدورة بغداد قرب طيسفون سنة (١٤٥هـ) لتكون عاصمة ملكه فانتقل إليها سنة (١٤٥هـ) لتكون عاصمة ملكه فانتقل إليها سنة (١٤٩هـ))[٩].

لم يحدثنا التاريخ عن نوع الأبنية التي شيدت في الهاشمية ولا عن النسيج الاجتماعي الذي كان يستوطنها ولا عن الحالة الاقتصادية والمعاشية للسكان باعتبارها عاصمة لدولة فتية تضم دوائر الدولة ذات الأهمية الأولى في نظام الحكم، إلا أن مأساة آل الحسن عليهم السلام والمصير المؤلم الذي لاقوه على أيدي جلاوزة المنصور طغت على تاريخ المدينة فما تذكر الهاشمية إلا ويتبادر إلى الذهن تلك الحادثة المؤلمة.

السيد زكي المنصوري قائمقام قضاء الهاشمية.. في حديث مع المحرر

الشارع الرئيس في مركز قضاء الهاشمية

مآسي الحسنيين في دائرة الضوء

لم يحدثنا التاريخ عن مأساة جماعية حدثت أوائل الحكم العباسي بمثل مأساة أولاد الحسن المثنى بن الإمام الحسن السبط عليه السلام، وبالرغم من التعتيم الإعلامي الذي سدل الستار على هذه المأساة إلا أن المؤرخين أثبتوها في كتبهم وتعرضوا لها شرحاً وتفصيلاً لما لها من أثر مؤلم في النفوس ولكنهم اختلفوا في تحديد موضع الحبس الذي لاقى فيه السادة من آل الحسن عليهم السلام مصارعهم لذا نجد اليوم موقعين متقاربين نسبياً كل منهما يطلق عليه (القبور السبعة) وهو المكان الذي دفن فيه سبعة نفر من ذرية الإمام الحسن عليه السلام.

ومجمل الحالة التي على أثرها وقعت هذه المأساة يمكن إدراجها على النحو التالي:

بعد أن استتب الأمر لبني العباس وأصبح أبو العباس السفاح خليفة للمسلمين، بدأت حملة عباسية شعواء من أجل إلقاء القبض على محمد بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط عليه السلام المعروف بـ(محمد ذي النفس الزكية) الذي بايعوه خليفة للمسلمين أيام انحطاط دولة بني أمية إلا أنها باءت بالفشل وعندما تسنم المنصور الحكم زاد طلبه لمحمد وأخيه إبراهيم الذي عاضده في أمره فكان محمد مختفياً في المدينة يتحين الفرصة المناسبة لإرجاع الأمر إليه وكان اخوه إبراهيم في البصرة يعد العدة والعدد للثورة ضد العباسيين، قدحت في ذهن المنصور فكرة العمل بسياسة أخذ الأقارب بذنب القريب وبالفعل أوعز إلى عامله على المدينة بإلقاء القبض على آل الحسن وإيداعهم السجن لأجل غير مسمى حتى يتبين ما سيؤول إليه أمر محمد وإبراهيم، وكان سيد بني الحسن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط عليه السلام وسمي بالمحض لأن أباه ابن الحسن عليه السلام وأمه فاطمة بنت الإمام الحسين عليه السلام، وكان أشبه الناس

مزار القبور الخمسة كما يبدو من الخارج

برسول الله ﷺ وقد سجنه المنصور طالباً منه ابنيه محمد وإبراهيم، مع بني أبيه بالمدينة عام (١٤٢هـ) وبقوا بالمدينة إلى عام (١٤٤هـ) حيث حملهم إلى مدينة الهاشمية وقتلهم[١٠].

ويؤيد ذلك الأصفهاني في مقاتله حيث قال: (إنه لما حج المنصور سنة (١٤٤هـ) أمر واليه رياح بن عثمان أن يبعد آل الحسن ـ ومعهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان أخو بني الحسن لأمهم إلى الربذة مكتوفين مقيدين بالسلاسل في أرجلهم وأعناقهم وأركبهم على أغلظ مركب بغير وطاء، ولما أخرج بهم من المدينة على هذه الصفة، وقف سيدهم وعميدهم الإمام جعفر الصادق عليه السلام ينظر إليهم من وراء ستر بحيث لا تراه الناس ـ وهو يتلهف ويبكي ودموعه تجري على كريمته المباركة وهو يدعو الله تعالى ويقول: (والله لا تحفظ لله حرمة بعد هؤلاء))[١١].

وقد ذكر الشيخ محمد الخضري ما نصه: (صار المنصور يحتال بأنواع الحيل ليعرف الأخبار عن محمد واستخراج ما عند أبيه عبد الله بن الحسن من أخباره، ولما علم أن عبد الله يعرف نية ابنه حج سنة (١٤٠هـ) وسأل عبد الله عن ابنيه فأنكر أن عنده علم بهما فلم يتيقن المنصور كذبه حبسه وصادر أمواله)[١٢].

أما اليعقوبي فيذكر: (حج أبو جعفر سنة (١٤٠هـ) لينظر ما زيد في المسجد الحرام، وقد كان بلغه أن محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن تحرك، فلما قدم المدينة طلبه، فلم يظفر به، فأخذ عبد الله بن حسن بن حسن وجماعة من أهل بيته، فأوثقهم في الحديد وحمله على الإبل بغير وطاء، وقال لعبد الله دلني على ابنك، وإلا والله قتلتك، فقال عبد الله والله لامتحنت بأشد مما امتحن الله به خليله إبراهيم، وإن بليتي لأعظم من بليته لأن الله عز وجل أمره أن يذبح ابنه، وكان ذلك لله عز وجل طاعة، فقال: إن هذا لهو البلاء العظيم، وأنت تريد مني أن أدلك على ابني لتقتله وقتله لله سخط، وقال أبو جعفر: يا ابن اللخناء! فقال وأنك لتقول هذا ليت شعري أي الفواطم لخنت يا بن سلامة؟ أفاطمة بنت الحسين، أم فاطمة بنت رسول

الله أم جدتي فاطمة بنت أسد بن هاشم جدة أبي أم فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم جدة جدي؟ قال لا واحدة من هؤلاء، وحمله..)[١٣].

من النص أعلاه نستنتج:

١- أن بوادر حركة محمد ذي النفس الزكية كانت منذ عام (١٤٠هـ) وقد تزامن معها إلقاء القبض على أبيه وأعمامه في حين ذكرت المصادر الأخرى أن ذلك حدث عام (١٤٢هـ).

٢- ينقل النص أن أبا جعفر قد حملهم معه إلى عاصمته الهاشمية في حين ذكرت المصادر أن آل الحسن عليهم السلام سجنوا في المدينة ثم سرح بهم عامل المدينة إلى الهاشمية.

٣- يكشف النص أيضاً عن شدة طلب أبي جعفر لمحمد عن طريق حدة اللهجة واختيار الكلمات ذات الوعيد مقابل ذلك تمسك عبد الله المحض بسلامة ولده ودفاعه عن مشروعية عدم الإخبار بمحله.

عموماً يمكن ذكر أبناء الحسن عليهم السلام الذين تم اقتيادهم إلى الهاشمية على النحو التالي:

١- عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط عليهم السلام، مات في الحبس.

٢- إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط عليهم السلام، مات في الطريق ودفن في الكوفة على أشهر الروايات.

٣- الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط عليهم السلام، مات في الحبس.

٤- موسى الجون بن عبد الله المحض، نجى من الموت.

٥- يحيى بن عبد الله المحض، نجى من الموت.

٦- إسماعيل الديباج بن إبراهم الغمر، نجى من الموت وبعض المصادر تذكر وفاته في الحبس.

٧- محمد الديباج بن إبراهيم الغمر، دفن في اسطوانة وهو حي.

٨- إسحاق بن إبراهيم الغمر، مات في الحبس.

٩- علي بن الحسن المثلث المعروف بـ(علي الخير أو علي العابد)، مات وهو ساجد في الحبس.

١٠- العباس بن الحسن المثلث، هدم

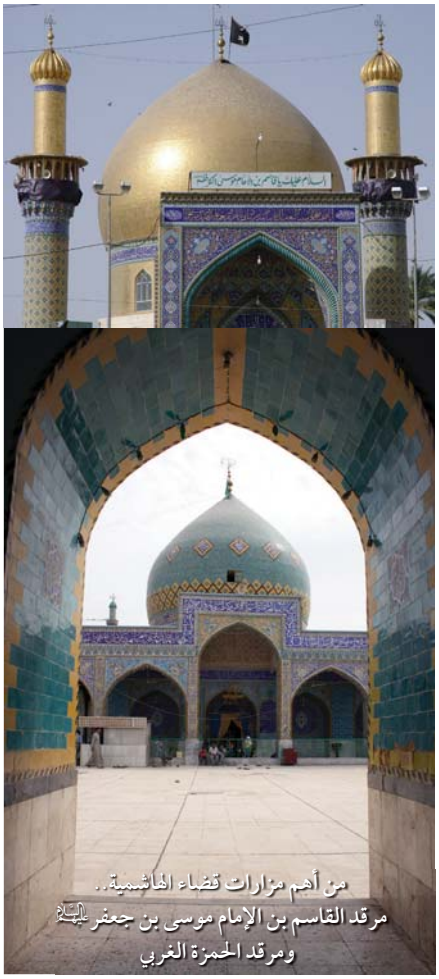

من أهم مزارات قضاء الهاشمية..
مرقد القاسم بن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام
ومرقد الحمزة الغربي

عليه السجن فمات.

١١- عبد الله بن الحسن المثلث، هدم عليه السجن فمات.

١٢- سليمان بن داود بن الحسن المثنى، نجى.

١٣- عبد الله بن داود بن الحسن المثنى، نجى.

١٤- الحسن بن جعفر بن الحسن المثنى، نجى.

١٥- داود بن الحسن المثنى، نجى بدعاء أمه الذي علمها إياه الإمام الصادق عليه السلام المعروف بدعاء أم داود.

١٦- محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان (أخو عبد الله المحض لأمه فاطمة بنت الإمام الحسين عليه السلام) قتل في الطريق.

والمشهور مقتل سبعة أشخاص من هؤلاء، وأما الباقي فقد نجوا بأعجوبة فقد ذكر أبو الفرج الاصفهاني (عن يحيى بن عبد الله الذي سلم من الذين تخلفوا في الحبس من بني الحسن، فقال: حدثنا عبد الله بن فاطمة الصغرى عن أبيها عن جدتها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله: قال: قال لي رسول الله (يدفن من ولدي سبعة بشط الفرات لم يسبقهم الأولون ولم يدركهم الآخرون، فقلت: نحن ثمانية، قال: هكذا سمعت فلما فتحوا باب السجن وجدوهم موتى، وأصابوني وبي رمق وسقوني ماء وأخرجوني فعشت)[١٤].

أما عن ظروف السجن ومعاناة آل الحسن فقد تنوعت الروايات في ذكر تلك الظروف القاسية التي أحاطت بهم.

ومن تلك الروايات: (... وحمل أولاد الحسن على أقتاب الجمال مكشوفة رؤوسهم والشمس تقرعها وليس تحتهم وطاء ولا غطاء عرايا عطاشا جياعاً فمات عبد الله الغمر في الكوفة فدفن بها وبنى المنصور على محمد بن إبراهيم الغمر - وكان يعرف بالديباج لجماله - اسطوانة وهو حي فمات فيها ثم مات عبد الله المحض ثم مات علي بن حسن وكان حبسهم بالمطبق تحت الأرض في الأرض وماتوا جياعاً عطاشا يتماوتون، إذا مات أحدهم ترك بينهم بلا دفن وهكذا إلى آخرهم)[١٥].

في حين يذكر بن عنبة في عمدته ما نصه: (كانوا خمسة عشر رجلاً وقيل سبعة حبسوا بالهاشمية، عند قنطرة الكوفة في سرداب ما كانوا يعرفون فيه الليل والنهار ثم قتلوا، بعضهم دفن حياً وبعضهم بنى عليه اسطوانة وبعضهم

مرقد علي الخير بن الحسن المثلث

قبر القاسم بن الحسن..
والصحيح قبر العباس بن الحسن المثلث.. على يمين الداخل إلى المزار (القاعة الكبرى)

سقي السم وبعضهم خنق)[١٦].

أما أبو الفرج الاصفهاني فيصفهم بقوله:(إن بني الحسن لما طال مكثهم في حبس المنصور وضعفت أجسامهم كانوا إذا خلوا بأنفسهم نزعوا قيودهم فإذا أحسوا بمن يجيء إليهم لبسوها، ولم يكن علي العابد يخرج رجله من القيد فقاله له في ذلك فقال لا أخرج هذا القيد من رجلي حتى ألقى الله عز وجل فأقول: يا رب سل أبا جعفر فيما قيدني؟).

دامت مدة الحبس ستة أشهر وخلال هذه المدة مات من مات من شدة المعاناة.

الهاشمية اليوم

تقع الهاشمية جنوب مدينة الحلة على بعد (٢٨كم)، على الحافة الغربية لنهر الفرات، ويمر بها خط سكة الحديد الذي يربط العاصمة بغداد بالبصرة وفي تلك النقطة أنشأ جسر حديدي على نهر الفرات لعبور القطار، ولم يبق للمدينة القديمة من أثر، ولهذا اختطت بها الدولة سنة (١٩٢٧م) قرية عصرية مكونة من مجموعة من البيوت والدوائر الحكومية وتجمعت حول بنايات الحكومة أكواخ وبيوتات صغيرة[١٧].

في اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الأول (١٤٢٨هـ) المصادف ٢٠٠٧/٤/٤ اتجهنا نحو مدينة الهاشمية منطلقين من النجف باتجاه الحلة ثم أخذنا الطريق الموصل إلى مدينة القاسم، وصلنا إلى الهاشمية الحديثة ووجدناها عبارة عن بضع شوارع تحتوي على محلات تحيط بجانبيها وتطل على نهر الفرات، التقينا السيد زكي المنصوري قائمقام قضاء الهاشمية الذي تفضل بالحديث عن القضاء قائلاً: (يضم قضاء الهاشمية أربع وحدات إدارية وهي ناحية القاسم وناحية الطليعة وناحية الحمزة الغربي - المدحتية - وناحية الشوملي إضافة إلى مركز القضاء - الهاشمية -، يبلغ تعداد نفوس قضاء الهاشمية حوالي (٣٧٥) ألف ساكن، وتبلغ المساحة الإجمالية لقضاء الهاشمية (٨٠٩، ٦١٣كم٢) تتوزع عليها خمس وسبعون مقاطعة. يمر خلال القضاء الطريق السياحي الذي يربط بغداد بالبصرة).

وعن أهم المراقد الموجودة في القضاء يقول الأستاذ المنصوري: (يعتبر مرقد الحمزة الغربي ومرقد القاسم عليهما السلام من أهم المراقد التي يؤمها الناس في كل وقت وخصوصاً ليالي الجمعة وفي المناسبات الدينية حيث تقام المراسم الدينية، وإضافة إلى

وجود هذين المرقدين فهناك عدة مراقد متوزعة هنا وهناك أغلبها لذرية أهل البيت عليهم السلام فقد اهتم الناس بها وبنوا عليها قباباً خضراء تراها متناثرة هنا وهناك، مع القبور الخمسة لذرية الإمام الحسن عليه السلام الذين لقوا مصرعهم في سجن أبي جعفر المنصور من المزارات التي يقصدها الناس).

يخترق شط الحلة الهاشمية من الوسط ثم يتجه نحو مدينة الديوانية ومع جود هذا النهر إلا أن المدينة تعاني من شحة في مياه الشرب فقيمة المياه الصالحة للشرب تقدر بحوالي (٢٠٪) من وارد المياه العام والباقي يمثل ضائعات مائية وقد يتداخل الماء مع المياه الجوفية نتيجة لحدوث تكسرات في شبكة الماء الصافي التي تعاني هي الأخرى من الإهمال، يمكن القول أن قضاء الهاشمية يحتاج إلى تحديث وصيانة في كل المجالات الخدمية والاجتماعية، أما شبكة المبازل فشبه معطلة الأمر الذي أثّر سلباً على الواقع الزراعي الذي تتغير به المنطقة وحديث الأستاذ المنصوري: (إن هذه السلبيات ليست وليدة اليوم بل هي نتيجة لتراكم الإهمال المتعمد الذي كان سائداً في المدن الوسطى والجنوبية من العراق أيام العهد المباد، واليوم لازلنا نتحمل تبعات الأمس، الأمر الذي أرهق المواطن شأنه في قضاء الهاشمية شأنه في باقي المدن العراقية.

أما عن الطرق فقد تقرر تبليط بعض الشوارع الخدمية خصوصاً للقرى التي تعاني من صعوبة الوصول إليها عبر الطرق الحالية واليوم ينصب الاهتمام على إنشاء طريق القاسم - الكفل، وقد تحدث السيد المنصوري عن النشاط الزراعي قائلاً: (تم الاتفاق بين مجلس قضاء الهاشمية والقائمقامية والسيد المحافظ) على الاهتمام بالنشاط الزراعي للقضاء وذلك من خلال دعم الفلاح والمزارع وهذا الدعم سوف ينتج عنه ما يلي:

١- تحديد هجرة الفرد من الريف إلى المدينة.

٢- تشغيل عدد أكبر من أبنائنا في مجال الزراعة.

٣- تنشيط القطاع الزراعي وبالتالي القضاء على مشاكل التربة المتمثلة بالملوحة والتصحر.

أما معاناة الواقع الصحي للقضاء فهي مستمرة حيث توجد في مركز المدينة مستشفى واحدة فقط تقدم خدماتها المتواضعة والبسيطة وفي النية استحداث مستشفيين في كل من ناحية الشوملي وناحية القاسم.

وبالنسبة لقطاع التعليم فالقضاء يحتاج إلى الكثير من المدارس خصوصاً مع ارتفاع معدل النمو السكاني ولحد الآن توجد مدارس بدائية لا تفي بأدنى احتياجات الطالب ومع ذلك فإننا نعمل جاهدين على استحصال الموافقة بصرف مبالغ لإنشاء مدارس وعمل ملاحق لمدارس موجودة في القضاء.

أما عن المساجد فيوجد في مركز القضاء مسجدان أحدهما مسجد وحسينية الهاشمية تقع بالقرب من الشط والآخر مسجد وحسينية آل الرسول وتقع في حي العسكري، تمثل حسينية الهاشمية مركز تجمع المواكب التي تتمركز بها في أداء مراسم عزاء سيد الشهداء والمحافل الأخرى وقد أعيد

افتتاح مكتبة الإمام الحكيم الواقعة في الحسينية لتقدم خدماتها للقراء الكرام بعدما تم إغلاقها لسنين طويلة إبان الحكم البعثي.

وعن النسيج الاجتماعي لقضاء الهاشمية تحدث لنا الأستاذ المنصوري قائلا: (المواطنون في قضاء الهاشمية متحابون ومتعاونون ومع وجود القبلية فالاحترام متبادل بين أبناء القضاء كما أن الفضل في استتباب الحالة الأمنية المستقرة نسبياً في القضاء يعود للتفاهم المشترك بين أبناء العشائر).

أما الباحث عبد الرضا عوض فيقول: (لم تقفل الهاشمية عشائرياً على فئة معينة فموقعها متوسط بين آل سلطان في الشرق ومع الجبور في الغرب واستوطنها السادة الشرفاء (الشرفة) وكذلك السادة آل بو سعبر الذين اتخذوا من القصبة مركزاً لنشاطهم التجاري ثم توسعت تدريجياً إلى ما هي عليه الآن وبقي اسم القصبة يتراوح بين الجربوعية والهاشمية إلى أن ثبت رسمياً بـ(قضاء الهاشمية) تيمناً بهاشم جد النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم)[١٨].

في الأعلى.. صخرة مكتوب عليها أسماء أولاد الحسن السبط ممن قتلوا في الحبس
في الأسفل.. قبر محمد الديباج بن إبراهيم الغمر الذي دفن حياً بعد ما وضعوه في الأسطوانة

التوجه نحو موقع (القبور الخمسة)

توجهنا نحو موقع القبور الخمسة منطلقين من النجف نحو الحلة ومنها نحو الهاشمية، في أثناء الطريق بين النجف والحلة وجدنا قطعة تشير إلى (القبور السبعة) ذرية الإمام الحسن عليه السلام، فلم نعر لها اهتمام واتجهنا نحو مقصدنا.

تقع (القبور الخمسة) على بعد (٣)كم جنوب شرق الحلة، محاذية للشارع العام حلة ـ هاشمية والموقع عبارة عن صحن

كبير يحيط به جدار آيل للسقوط، وقد سقط جزء منه بالفعل، يقترب من الزاوية الغربية والبناء عبارة عن قاعتين تلاصق أحدهما الأخرى على هيئة الحرف اللاتيني (L) يمكن الدخول لكل قاعة عن طريق منفذ خاص بها تضم القاعة الأولى مرقدين يتوسطانها كتب على الأول مرقد إسماعيل بن الحسن ولعله إسماعيل الديباج تعلوه قطعة قماش خضراء، يرتفع عن الأرض بمقدار (٠،٦) متر ويبلغ طوله (٢) متر تقريباً، ويعلوه صندوق من الألمنيوم والى جانبه مرقد إبراهيم بن الحسن، وقد تم وضعه في قفص من الحديد المطلي باللون الأخضر، القاعة بسيطة من الداخل خالية من الأثاث، تبلغ مساحة القاعة (٣٥) متر مربع.

أما القاعة الأخرى فكبيرة نسبة إلى الأولى يواجهك وأنت تدخل قبر مكتوب عليه هذا مرقد علي بن الحسن، وأظنه هو قبر علي الخير، يطل على هذه القاعة مدخلان أحدهما يقع على يمين الداخل، والمدخل يفضي إلى حجرة تبلغ مساحتها حوالي (٢٥) متراً مربعاً يتوسطها قبر القاسم بن الحسن، ولا نعلم من يكون القاسم هذا، وربما يكون هو أبو القاسم العباس بن الحسن المثلث، تعلو هذه الحجرة قبة مطلية باللون الأخضر يبلغ محيطها (٥)م وارتفاعها (٥)م أيضاً والبناء كما وصفناه سابقاً بسيط للغاية، حيث يمكن القول أن هذا الموقع المقدس لم تمد له أي يد أعمار ماعدا القاعة الرئيسية التي كانت مبنية بجذوع النخيل، وقد رممت وأصبحت مبنية بالشيلمان كما أخبرتنا بذلك سادنة

القاعة الصغرى..
ويبدو في وسطها مرقدان لإسماعيل بن إبراهيم..
ووالده إبراهيم بن الحسن

المرقد التي لم تزودنا بمعلومات تخص هذا المزار لأنها لا تعرف سوى أن هؤلاء هم أبناء الحسن عليه السلام !!

أما المدخل الآخر فيقع أمام الداخل إلى المرقد على الجهة اليسرى ويفضي أيضاً إلى حجرة تعلوها قبة خضراء، يبلغ ارتفاعها تقريباً (٥)م، وقطرها (٤)م، أما مساحة الحجرة فتبلغ (١٦) متراً مربعاً يتوسطها قبر مكتوب عليه محمد إبراهيم الديباج وهو الديباج الذي بنى عليه المنصور اسطوانة وهو حي فمات في داخلها.

وعن هذا القبر يتحدث المرحوم الشيخ محمد حرز الدين بقوله: (مرقد بـ(الهاشمية) عاصمة المنصور الدوانيقي ـ عند قنطرة الذهب ـ واشتهر قبره في عصرنا هذا في البقعة المعروفة بالقبور الخمسة تقع على يسار الذاهب من الحلة إلى مرقد القاسم عليه السلام قرب الطريق العام، حولها تلال كانت مدينة مندرسة واقعة على صدر نهر الجربوعية اليوم، بمدينة سورا[١٩]. على أننا لم نجد في ذلك المزار مرقداً لشيخ بني الحسن المقتول هناك السيد عبد الله المحض، والظاهر أن التسمية أطلقها الأعراب على هذه القبور دون تمحيص أو بحث، وقد أخبرتنا السادنة أن قبرين آخرين يقعان في الصحن فوجدنا أحجاراً يعلوها بعض الأشرطة الخضراء ولا ندري لمن هذا القبر، إنها دعوة للبحث والتحري ومن ثم مد يد المساعدة لأعمار هذا المزار.

هنالك عدة أدلة تقطع بكون هذه القبور هي عينها سجن أبي جعفر المنصور منها:

١ـ قربها من نهر الفرات حتى الآن والروايات كلها تجمع على أن آل الحسن قتلوا في حبسهم عند قنطرة الفرات وكما ذكرنا ذلك في حديث فاطمة (سيقتل سبعة من ولدي...).

٢ـ تقع اليوم على مسافة (٣)كم من الحبس منطقة تسمى السفاح وعندما ذهبنا إليها وجدنا تلاً عالياً ويبدو عليه أنه بقايا قصر كان مشيداً في الماضي ووجدنا آثاراً لقطع من الخزف المزخرف والمزجج.

٣ـ عدم توزيع القبور بطريقة انتظامية يدل على حالة من عدم الاطمئنان عند الأشخاص الذين تولوا دفن تلك الأجساد الطاهرة إلا أننا نثبت استغرابنا من تعيين خمسة قبور فقط دون الاثنين الباقيين الذين يثبتان عبارة (القبور السبعة).

القبور السبعة في موقع آخر

كما ذكرنا عندما اجتزنا الكوفة واتجهنا نحو الحلة وقبل منتصف الطريق لفتت انتباهنا لافتة منتصبة على الطريق تشير إلى (مرقد أبناء الحسن ـ القبور السبعة) وكنا نظن أنها تشير إلى مقصدنا، باعتبار وجود طريقين يؤديان إلى نفس المكان إلا أننا فوجئنا بوجود مرقد آخر ينسب أيضاً إلى أبناء الحسن عليه السلام فقررنا الذهاب إليه.

يبعد هذا الموقع عن الشارع العام كوفة ـ حلة حوالي (٣)كم في منطقة يقال لها (أبو سميج) عند قبائل خفاجة، وقد التقينا سادن المرقد وهو الحاج رسمي عبد الحسين الخفاجي الذي أوضح لنا ذلك قائلاً: (هذه الأرض هي أرض أجدادنا وقد ولدوا وولدنا فيها ونعرف أن هذا المزار هو مزار أولاد الحسن عليه السلام

الموقع الثاني للقبور السبعة عند عشائر خفاجة على طريق النجف ـ الحلة

الذين قتلهم المنصور في السجن ودفنهم فيه وعندما سألناه عن دليله قال: إن هذه المنطقة التي تضم المزار كانت تدعى بالمضيق وكان نهر الفرات يجري في هذه المنطقة وفيها توجد قنطرة الكوفة التي عندها حبس السادة من آل الحسن عليه السلام إلا أن نهر الفرات وبمرور الأيام حول مجراه).

المزار عبارة عن صحن كبير تتوسطه بناية المرقد والبناية عبارة عن حجرتين حجرة تضم ضريحاً تعلوه قبة زرقاء والأخرى تضم ضريحاً أيضاً تعلوه قبة زرقاء وحسب ما ينقل السادن فإن الضريح الأول يضم رفاة أربعة ممن ذكرناهم والأخرى تضم رفاة ثلاثة، ومما أثار استغرابنا عدم البت بهذا الموضوع وتعيين الموقع الحقيقي للقبر من قبل المرحوم الشيخ محمد حرز الدين حيث يثبت لأبناء الحسن عليه السلام قبراً في الهاشمية التي أسلفنا القول عنها ثم يعود ليذكر المكان الذي نتحدث عنه الآن بوصفه مرقد آل الحسن عليه السلام، حيث يقول: (مرقده ـ أي عبد الله المحض ـ وآل الحسن في الهاشمية عند قبائل خفاجة اليوم وكانت قبورهم في بنية واحدة مستطيلة تعرف بالقبور السبعة، وقفنا على قبورهم رضوان الله عليهم وكان في العهد العثماني الحاكم في العراق)[٢٠].

وقد علق على ذلك حفيد المؤلف الشيخ محمد حسين حرز الدين حيث قال: (وقفت على القبور السبعة سنة ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م فكانت تقع على مرتفع من الأرض شبه التل الكبير المنبسط فيه الحجارة القديمة وهي ظاهرة فيه، وكان بناء المرقد مستطيلاً بثلاث اسطوانات فالاسطوانة الأولى الشرقية وهي أكبرهن ومنها مدخل المرقد وعليها القبة البيضاء وفي وسطها

الشباك الخشبي الذي كان كل من أبعاده الثلاثة حدود المترين وعليه بردة خضراء فهي رسم لقبور أولاد الحسن المثنى، كما تشير إلى ذلك لوحة الزيارة المعلقة على شباك المرقد فقد كتب عليها هذا العنوان (هذه زيارة أولاد الحسن المثنى الذين توفوا بالحبس سنة ١٤٥هـ)، والاسطوانة الثانية ليس فيها رسم قبر والثالثة وهي الغربية صغيرة في وسطها دكة قبر عليها بردة خضراء وفوقها قبة بيضاء أصغر من تلك)[٢١].

والظاهر أن البناء هو نفسه ما عدا صبغ القبة باللون الأزرق.. إنها ظاهرة ينبغي التوقف عندها، ظاهرة تعدد الأماكن للمزار الواحد وربما في هذا التعدد حكمة حيث تبقى هذه المزارات ماثلة للعيان شواهد باقية تدل على مظلومية العترة الطاهرة، عترة الزهراء والمرتضى عليهما السلام ■

(١) الشهرستاني، وضوء النبي، ص٣٣٨.
(٢) شمس الدين، أنصار الحسين، ص٢٠٨.
(٣) قصي الحسين، موسوعة الحضارة العربية ـ العصر العباسي، ص٨٠.
(٤) نشأة المدينة الإسلامية ـ الكوفة، ص٣٥٣.
(٥) موسوعة الحضارة العربية ـ العصر العباسي، ص٨٧.
(٦) الحموي، ١٣٤/١.
(٧) المصدر السابق، ٣٦٥/٤.
(٨) تاريخ اليعقوبي، ص٢٩٣.
(٩) عوض، الدرة البهية في تاريخ المدحتية، ص١٠.
(١٠) العسكري، معالم المدرستين، ٣١٣/٢.
(١١) مقاتل الطالبيين، ص٢٣٠، الكامل، ٣٧٤/٤.
(١٢) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، ص٥٩.
(١٣) تاريخ اليعقوبي، ص٣٠١.
(١٤) مقاتل الطالبيين، ص١٩٣.
(١٥) تاريخ الطبري، ٤١٤/٤-٤٢١.
(١٦) مقاتل الطالبيين، ص١٨٢.
(١٧) عوض، الدرة البهية في تاريخ المدحتية، ص١٠.
(١٨) المصدر السابق، ص١١.
(١٩) حرز الدين، مراقد المعارف، ٢٦١/٢.
(٢٠) المصدر السابق، ١٦/٢.
(٢١) المصدر السابق، ١٧/٢.

في الأعلى.. ضريح يضم أربعة من أبناء الإمام الحسن
في الأسفل.. ضريح يضم ثلاثة من أبناء الإمام الحسن..
وكلاهما في بناء واحد وتعلوهما قبتان

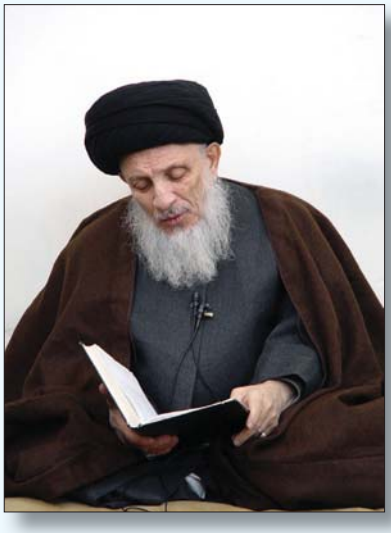

يعلن باب (في رحاب الفقه) عن استعداده للقراء الكرام في استقبال أسئلتهم الفقهية، والإجابة عنها في ضوء فتاوى سماحة المرجع الديني الكبير السيد محمد سعيد الطباطبائي الحكيم (مدّ ظله)

بسم الله الرحمن الرحيم

س: ما هو الحكم: لو عين المصلي سورة التوحيد وقرأ غيرها؟ أو بسمل لها فقرأ لغيرها أو بسملة لأي سورة إجمالا كالكوثر أو التوحيد؟ فهو يحدد ما يريد بعد البسملة فهل يجزيه ذلك أو لابد من تعين البسملة أولاً.

ج: لابدّ من تعيين السورة عند الشروع بقراءة البسملة لا بعده.

س: لدي أموال أدخرها إلى حين اكتمال المبلغ لشراء سيارة أو أرض أو بناء منزل إلا أن الحول حال عليها وهي بعد لم تصل إلى المقدار المطلوب لشراء السيارة اللائقة فهل يجب تخميس المبلغ المذكور؟

ج: نعم يجب تخميسه.

س: ما حكم الخارجة عن طاعة الزوج إلى بيت أهلها مصطحبة معها الأولاد وهم في سن (٩و١٠) سنوات، لمن تكون الحضانة وهل هناك سن معين لحضانة الناشز لأبنائها إذا كان الزوج متمكن

وراغب في بقاء الأبناء تحت حضانته؟

ج: حق الحضانة في مفروض السؤال للأب دون الأم وليس للام حق الحضانة إلاّ في مدة الرضاع على تفصيل مذكور في الرسائل العملية.

س: هناك مقطع من دعاء كميل فيه آية قرآنية فكيف يكون دعاء الخضر وهل يعلم الخضر بالقران؟

ج: لا مانع من ذلك إذ يمكن أن يكون الخضر قد دعا بهذا الدعاء بعد نزول القرآن، أو لعل مفاد هذه الآية موجود في كتب سماوية أو أحاديث قدسية سابقة، والله العالم.

س: ما الحكم في عمل شخص كمدير بنك في الدول الجائرة وظيفته إمضاء العقود بما فيها العقود الربوية لتكون سارية المفعول أي إجراء إداري ليس إلاّ ثم لو سمحتم أن توضحوا ما هي الأعمال الجائزة بالتفصيل؟

ج: لا يجوز العمل في وظائف الظالمين ولاسيما إذا كان العمل محرماً كإمضاء العقود الربوية. نعم يجوز العمل المحلل في دوائر الدولة إذا كان الهدف نفع المؤمنين على تفصيل لا مجال لبيانه في هذا الجواب. كما يجوز العمل المحلّل في البنوك الأهلية كإجراء القروض غير الربوية.

س: إني أملك صالون حلاقة رجالي... وقد قالوا لي انه لا يجوز حلاقة اللحية على الشفرة (الموس) وهنا وقعت في حيرة لأن إذا لم احلق للزبون على الشفرة لم يأت بعد إلى صالوني... مع العلم أني لا أملك مصلحة أخرى. وأني معيل لأسرتي...

ج: لا يجوز حلق اللحية ولا اخذ الأجرة عليه إلاّ في حالة اضطرار الشخص لحلقها فيجوز لك حلقها له واخذ الأجرة عليها والحاجة للمال لا تبرر اخذ المال بطريق محرم.

س: هل يصح إجراء عقد الزواج عبر الإنترنت؟

ج: إذا كان بالمحادثة والتكلم صح وإذا كان بالكتابة فلا يصح.

س: يوجد الآن في الأسواق نوع من الجبن المستورد من البلاد الأجنبية الغربية مكتوب عليه أنفحة عجل ويقول البعض انه يوجد فيه دهن حيواني وذلك ليبقى طريا فهل يجوز أكله ؟

ج: يجوز أكل الأجبان المذكورة حتى مع العلم باحتوائها على أنفحة العجل ـ في مفروض السؤال ـ إلاّ مع العلم بطروء النجاسة عليها فيحرم أكلها حينئذ.

س: هل يجوز للمرأة المؤمنة أن تتعالج لدى طبيب أسنان رجل إذا كان العلاج يتطلب تداخل جراحي دقيق مع العلم بوجود امرأة طبيبة أسنان ولكن ليس بكفاءة الطبيب. وخوفا من حدوث مضاعفات؟

ج: يجوز لها ذلك في مفروض السؤال.

س: هل لبس الجوراب واجب على المرأة؟ وإذا كان واجب ولم تلتزم المرأة بلبسه.. هل تحاسب على ذلك؟

ج: الأحوط وجوباً للمرأة ستر ظاهر القدم عن الأجنبي، بلبس الجوراب أو غيره ولا يجب ستره للصلاة.

س: هل حزام الجلد الأصلي المصنوع في إيطاليا نجس، أنا لا أعلم إن كان مذكى أم لا؟ وهل يجوز الصلاة فيه؟

ج: نعم هو بحكم النجس في مفروض السؤال ولا تجوز الصلاة معه، وأما مع الشك في أنه أصلي أو اصطناعي فهو محكوم بالطهارة وتجوز الصلاة معه.

س: هذا إشكال قد يرد من بعض أهل السنة وهو أنَّ علماء الشيعة تقول: أن إضافة (وصحبه أو وأصحابه) في الصلاة على النبي وآله بدعة فإذا كان هذا القول هو رأي عامة الشيعة؛ فماذا تقولون في قول الإمام علي بن الحسين زين العابدين في دعاء يوم الثلاثاء: (اللهم صل على محمد خاتم النبيين وتمام عدة المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه المنتجبين، وهب لي في الثلاثاء ثلاثا...). ثم إنكم تقولون بلزوم إضافة (وآله) عند الصلاة على رسول الله ولم أجد ذلك في دعاء الإمام علي بن الحسين وهو الدعاء الثاني من أدعية الصحيفة السجادية حيث قال:... اللهم صل على محمد أمينك على وحيك ونجيبك من خلقك... إلى أن يقول:وعرفه في أهله الطاهرين وأمته المؤمنين... إلى أخر الدعاء ولم يذكر فيه الصلاة على الآل معطوفة بالصلاة عليه، فمن أين أوجبتم لزوم الصلاة على آله مع الصلاة عليه وهذا الإمام زين العابدين لم يلتزم بذلك؟ نعم قد قال في البداية: الحمد لله الذي منَّ علينا بمحمد صلى الله عليه وآله دون الأمم الماضية... ولكن إذا كان ذكر الآل لازماً في الصلاة عليه فلماذا أسقطها الإمام في الثانية، وكذلك في كثير من الأدعية نجد الأئمة أنفسهم يصلون على النبي دون أن يعطفوا بالصلاة على آله فهم لا يلتزمون بإضافة الآل فكيف تردون؟

ج: الشيعة لا يعتبرون الدعاء للصحابة ـ بغير قصد التشريع ـ حراماً وبدعة، ولكنه لم يرد في أحاديث النبي (صلى الله عليه وآله) بإجماع المسلمين، فهو من ما استحدث بعد النبي (صلى الله عليه وآله)، والذي يعتبره سنة لازمة أو شبه لازمة هو الذي يحتاج إلى دَليل على ذلك. أما الصلاة على أهل البيت (عليهم السلام) مع الصلاة على النبي (صلى الله عليه وآله) فهو سنة شرعها رسول الله (صلى الله عليه وآله)، بل اجمع المسلمون على استحبابها واتفق الفريقان على نهي النبي

(صلى الله عليه وآله) عن الصلاة البتراء، فقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله): لا تصلوا علي الصلاة البتراء فقالوا: وما الصلاة البتراء؟ فقال: تقولون اللهم صل على محمد وتمسكون بل قولوا: اللهم صلِ على محمد وآل محمد. (الصواعق المحرقة لأبن حجر طبعة القاهرة سنة: ١٣٧٥ هـ ص١٤٤).

وأخرج الدارقطني والبهيقي في حديث: (من صلى عليَّ ولم يصل على أهل بيتي لم تقبل منه). (مقدمة مسند الإمام زيد:٣٤).

وأما عدم ذكر الآل في آخر كلام سيد الساجدين (عليه والسلام) فلعله لئلا يلزم الفصل بين اسم النبي (صلى الله عليه وآله) وصفاته بالآل ولا يلزم أن تكون صلاته صلاة بتراء لذكره الآل في بداية كلامه حيث إن كلامه من بدايته إلى نهايته كلام واحد.

س: ما هي صيغة النذر؟

ج: لابّد في صيغة النذر أن يجعل النذر لله تعالى مثل أن يقول الناذر: لله تعالى عليَّ كذا ـ أو نذرت لله كذا أو نحو ذلك.

س: كنت أحب قراءة سورة العلق في صلاة الفريضة، ثم نبهني أحد الأصدقاء إلى أن قراءتها غير جائزة لوجود آية السجدة الواجبة في آخرها، فما رأيكم بذلك؟

ج: لا تجوز قراءة إحدى سور العزائم الأربع في الفريضة لوجوب السجود بها الموجب لبطلانها وتجوز قراءتها في النافلة مع أداء السجود الواجب عند قراءة آية السجدة، ثم إتمام الصلاة.

س: ما حكم الصلاة فرادى مع وجود إمام يصلي في المسجد؟

ج: من دخل المسجد وفيه جماعة منعقدة جاز له أن يصلي منفرداً وصلاته صحيحة، ولكن الجماعة أفضل إذا كانت جامعة للشرائط.

س: نريد نصيحتكم سماحتكم حفظكم الله للشباب والشابات الذين يدرسون في جامعات مختلطة بين الشباب والشابات..

ج: الاختلاط بين الجنسين من أسباب انتشار الفساد والحرام فاللازم على الشباب المتدين الابتعاد عن كل ما يؤدي إلى الحرام والانجراف في التيار والوقوع في مصائد الشيطان، بنحو قد لا يستطيع الخلاص منه. ولذا كان اختلاط الرجل بالمرأة من المكروهات الشرعية الشديدة.

وأما الحديث بين الطرفين فهو أيضاً من أسباب الفتنة والفساد فاللازم الاقتصار على مقدار الحاجة والضرورة، والتعفف عن التمادي في الحديث والخروج به إلى الجوانب العاطفية والوجدانية. ويتأكد ذلك كله في حق المرأة، فإن عفتها وحشمتها وكرامتها أعظم رصيد لها في حياتها، فاللازم عليها التحفظ على ذلك كله والبعد عن كل ما يخدش فيه. ومن ثم يلزمها شدة الحذر، خصوصاً في هذه العصور التي قلَّ من يحافظ فيها على المثل والقيم، والتي عزت فيها الأمانة. والله هو المسدد والمعين، وإنا لله وإنا إليه راجعون ■

قصة قصيرة:

النـذر

بنت العراق •

ينابيع

كان يحث الخطى منبهراً وعيناه تتطلعان في كل اتجاه... عسى أن يشبع حبه للاستطلاع ورغبته في فهم ما يجري... وبالرغم من خطواته المتسارعة فإن جده الذي يشاطره الدرب لازال يسبقه بعدة خطوات. مما جعل المتساؤل لا يبارح ذهنه (يا ترى من أين جاءته هذه الهمة؛ لطالما بدا عجوزاً خائر القوى...) ولما تسير هذه الجموع باتجاه واحد... هدف واحد... أمل واحد... والأعجب بقلب واحد؟! هالة من الهيبة وجدار لا يعرف بماذا يصفه يباعد بينهما ويجعل الكلمات تتلاشى على شفتيه كلما أوشك أن يسأل أن يستفهم.

منذ ساعات طويلة وهما يسيران بدون راحة... بل وبكل همة... لهذا كسر الجد جدار الصمت قائلاً: لنأخذ استراحة... ثم سأل: أتعبت؟ أجاب الصبي: أبداً لم أفكر بالتعب حتى...

ما أن جلسا حتى امتدت أكثر من يد تناولهما الماء والشاي، أطرق الجد ملياً وهو يحتسي الشاي... بينما عينا الصبي تتابعه بلهفه... (لقد وعده بأن يحكي له) ليته يتكلم.

وبلحظة صفاء زالت كل الحواجز بينهما ومد الجد يده ماسحاً بها على رأس حفيده... وشجع ذلك الفعل الصبي... فسأل... أكلهم يسيرون ليوفوا نذراً في ذممهم؟!

- لا يا بني إنهم يسيرون ليحيوا ذكرى يجب ألا تموت لئلا تموت الضمائر بموتها!

واصلا السير من جديد... مع الكثير من الشباب والشيوخ والنساء... مختلف الأعمار ومختلف الحالات... هناك قال الجد: سأحكي لك ما تود سماعه ثم شردت عيناه... وغارتا في الماضي البعيد... بينما توالت الكلمات من فيه... عندما كنت حملاً في بطن أمك... نذر والدك إن كان الحمل ولداً سيسميه محمداً ويأخذه (عند بلوغه) سيراً على قدميه إلى الإمام الحسين عليه السلام.. لقد عشق أباك هذا الدرب... وتسنى لو يموت عليه... وقد حقق الله أمنيته... ورزقه الشهادة.

لاحت الدموع في عينيه وأكمل، السائرون على درب الحسين عليه السلام في ذلك العهد يا ولدي لم يسيروا أبداً تحت نور الشمس كما نحن الآن... كانوا يسيرون في حلكة الليل... بالرغم من الرعب والخوف... فإن قلوبهم العامرة بالإيمان تحثهم على السير قدماً... وكان أباك أحدهم.

اتسعت عينا الصبي دهشة؛ ومم يخافون؟!

من الطاغوت الذي يحكم العراق آنذاك لو ظفر بهم لقتلهم وشردهم.. زادت دهشته؛ عجباً يا جد ما ضير أن يسير

الإنسان على قدميه فيُقتل ويشرد!

- لأنه لا يسير على أي درب... بل في درب الحسين... وكل خطوة على هذا الدرب صداها صرخة تمزق سمع الطغاة... وتقول لا.

لأن الحسين قتل لأجل أن لا يدوم ظلم ولا يهان ضعيف... الحسين شعلة تتوهج في قلوب المستضعفين... لهذا كل ظالم على وجه الأرض يخشى الحسين... يخافه وترتعد فرائصه لمجرد ذكر اسمه... ولا يريد من يذكره بأن الحسين موجود.. حي في قلوب المحبين.. ولابد أن ينهض... ويقول لا.

- وماذا عن أبي...؟

اختار أباك درب الحسين ساحة ليجاهد بها الجور والكفر... وما أكثر سوح الجهاد آنذاك وما أكثر الشهداء.. في إحدى تلك السنين... خرج قاصداً مولاه، لم تكن الأمور تبشر بالخير... كانوا ينصبون الكمائن للزائرين... ويبطشون بهم... يقلبون قدور الطعام... يفعلون ذلك بحقد أعمى... لهذا ردعه كل من عرفه... لم يأبه بهم لكنه جاء ليستأذنني...

لم أستطع حبس دموعي وأنا أطلب منه ألا يهلك نفسه، لكنه قال كلمة جعلتني أعدل عن رأيي وأبارك مسيره...

قال: (أبي أنت من أوجد هذه الجمرة في قلبي... وقد اتقدت... أيمكنك إخمادها؟!)

ودعته وأنا أشعر أني لن أراه ثانية... وقد صدق حدسي... رحل أباك شهيداً... وعوضني الله خيراً بك.

شعبنا يا بُني عانى الآهات والويلات... ندفع ثمن حقد الآخرين وبغضهم هنا يجب أن تعلم أن خلاصنا في هذا الدرب لا غيره...

إن العراق أمانة بأيديكم أنتم... أيامنا نحن إلى نفاد... أنتم الجيل الذي يشرد الكفار ويبيدهم، ها أنت يا ولدي على درب الحسين عليه السلام نوشك أن نصل بعد سويعات... أريدك أن تقسم بحبك وولائك... بكل عزيز عندك... أن تعلّم أولادك... وأحفادك... لم وجدت هذه المسيرة المليونية ولماذا يتسابق الناس للسير هنا بالرغم من أن الموت يمكن أن يحل في أي لحظة ويحصد أرواحهم.

أوجد ذلك في قلوبهم يا بني... ليعرفوا معنى الحب... ولييقى العراق... عراق... مالت الشمس نحو مغيبها... بينما بدا نور آخر أشد توهجاً... هناك بانت المنارة الذهبية... وامتلأت رئتا الصبي بعطر لم يشم مثله أبداً... وراحت رايته الخضراء تخفق بزهو فوق رأسه لم يشعر بألم قدميه المتورمتين أبدا... راح يركض... وهو يسحب يد جده... وصلنا يا جد... ووفينا بنذرك يا أبي... وفينا به ■

الشيخ المفيد..

عرض ودراسة

أ. د. الشيخ صاحب نصّار •
كلية التربية/ جامعة الكوفة

اسمه ونسبه

ينابيع

هو محمد بن محمد بن النعمان يكنى بأبي عبد الله، ويلقب بالمفيد وبابن المعلم لأن أبوه كان معلماً[١].

وتقرن باسمه ألقاب أخرى منسوبة إلى مدن وقبائل ومواقع كالبغدادي[٢] والعكبري[٣] والكرخي[٤] والعربي[٥] والحارثي[٦].

مولده ووفاته

ولد الشيخ المفيد في الحادي عشر من ذي القعدة عام (٣٣٦هـ) الذي يقابل (٩٤٧م) وتوفي رحمه الله عام (٤١٣هـ) الذي يقابل (١٠٢٢م) في بغداد وان عمره ناهز (٧٥) عاماً وأول من ترجم للمفيد هو تلميذه أبو العباس أحمد بن علي النجاشي صاحب كتاب (الرجال) وأن معظم وأغلب من ترجم لعلمنا قد أخذ من النجاشي.

وهو عربي نسباً كما أوردها أقرب المقربين علماً ومعاصرة تلميذه النجاشي ومن الغريب بعد هذا أن ينعته صاحب كتاب معالم العلماء ابن شهرآشوب في (ص١٠٠) بـ(القمي) في حين أنه بغدادي مولداً وسكناً وتحصيلاً ولم يذكر أحد إنه ذهب إلى قم أو سكن أو درس

والأغرب من هذا أن الدكتور الشيبي يعده دون سند من علماء الفرس بمعية ابن بابويه والطوسي والطبرسي وذلك في معرض كلامه عن فقهاء الفرس ومفكريهم في فترة القرن الرابع والخامس الهجريين[٧].

مدته الزمنية ومعاصرته

كان القرن الرابع للهجرة العصر الذهبي للعلوم الإسلامية، فازدهرت فيه العلوم كافة ومما ساعد على اتساع الحركة العلمية في بغداد حين كانت مركزاً للعالم الإسلامي وحاضرته العلمية والسياسية فكانت الرحلة تشد إليها من كل مكان، فنشأت المدارس ودور العلم، وكثرت مجالس المناظرة والجدل، وكانت الحرية أساس هذا الاتساع بعد أن أطلقت الحرية الدينية والفكرية والعلمية وأطلق العنان للفكر والعلوم[٨]. فقد عاصر الشيخ المفيد عدداً من الخلفاء العباسيين منهم المطيع لله (الفضل بن المقتدر) للمدة التي كان بها الخليفة (٣٣٤هـ - ٣٦٣هـ) وكذلك عاصر عدداً من البويهيين وكان في مقدمتهم عضد الدولة. وقد ظهر تميز شيخنا الأجل على مجتمع بغداد في تلك الحقبة الزمنية بسبب ما امتاز به من تفوق في علوم الشريعة كافة فكانت مؤلفاته ومجالسه ودروسه ومناظراته تؤرخ بفخر واعتزاز.

الجانب العلمي في مسيرة حياته

المفيد يجمع الأصالة في الفكر والتعمق في فهم العلوم الإسلامية والسعة في الاطلاع.

لقد حاز الشيخ المفيد مكانة علمية جليلة وأحرز التفاف العلماء والمثقفين إليه في بغداد ومن غيرها من البلدان، وقصده السائلون يستجوبونه، وجلس إليه طلاب العلوم الدينية ينهلون العلوم والمعارف وتعلم أساليب الجدل والمناقشة والحوار العلمي الهادف للوصول إلى الحقائق العلمية بأسلوب عربي رصين.

فعد موسوعة زمانِه في علوم الشريعة وغيرها، فيقف علماً شامخاً بارزاً بعقله ولسانه وذكائه المتميز بأدب العلماء الهادئ الهادف للإجابة على المسائل ودحض شبه البعض منهم، فكانت أفكاره تتفتح كتباً موسعة ورسائل موجزة في مختلف علوم الدين ومناظرات علمية وفكرية بقيت ليومنا هذا دروساً ومساراً وشعاعاً يستنار به في فهم الحقائق مقرونة بأدلة وثوابت رصينة في مقدمتها الكتاب العظيم والسنة الشريفة وغيرها.

ومؤلفات المفيد بين كتاب ضخم، ورسالة في وريقات، وذكر تلميذه الشيخ الطوسي المتوفى (٤٦٠هـ) وهو من تلامذته البارزين بأن مؤلفاته ناهزت المائتي مصنف[٩] وإنني أحصيتها ووقفت على أكثرها وقد بلغت (٢١٦) مؤلفاً[١٠].

أمـا شيوخه

تتلمذ الشيخ المفيد على يد كثير من العلماء في مختلف المذاهب الإسلامية وفي ضروب المعرفة التي تعد الرجل عالماً فقيهاً متكلماً، وإن تعداد شيوخه قرابة السبعين شيخاً استقى من مناهل علمهم وكان يذهب وراءهم أنى كان موضع العلم فذهب مستمعاً لبعضهم في أحد مساجد بغداد، أو في مجلس أو بيوت أحد العلماء أو في أماكن العلم. وتشير كتبه إلى ما يفيد دراسته عليهم بلفظ (حدثنا، أخبرنا)[١١].

ومن أبرز شيوخه:

١ـ أبو القاسم جعفر بن محمد المعروف بابن قولويه (ت ٣٦٨هـ).

٢ـ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين المعروف بابن بابويه الصدوق (ت ٣٨١هـ).

٣ـ أبو الحسن علي بن عيسى، الرماني (ت ٣٨٢هـ) يقال إنه الذي لقبه بالمفيد بعد مناظرة.

٤ـ أبو عبد الله محمد بن عمران الكاتب البغدادي المرزباني (ت ٣٨٤هـ).

ومن الجدير بالإشارة إنه كان يعد مؤسس علم البيان والفصاحة[١٢].

أما تلامذته

إن تلامذة الأستاذ أثر من آثاره، وكثيراً ما يكون تنقيب الأستاذ عن مواهب في طلابه ثم عنايته بصقلها وتوجيهها وبيانها وذلك في السهر على تخريجهم أجدى على المجتمع من تأليف كتاب أو إجابة مسألة. فهم في الحقيقة كتبه الحية السريعة الأثر في المجتمع وذراريه الروحيون على الأرض والناشرون

لآراء أستاذهم. فقد قرأ على الشيخ المفيد عدد من الأعلام، ويكفيه فخراً من تلامذته الشريفان الرضي والمرتضى والشيخ الطوسي والكراجكي وغيرهم كثير بهذا المستوى المرموق[١٣].

ما كتب عنه وفق المسار التاريخي

١- التمهيد في ترجمة الشيخ المفيد، للسيد حسون البراقي المتوفى (١٣٣٢هـ).

٢- التمهيد في خلاصة ما ذكره العلماء في ترجمة الشيخ المفيد للسيد هبة الدين الشهرستاني المتوفى (١٣٨٦هـ).

٣- نظريات علم الكلام عند الشيخ المفيد، باللغة الإنكليزية لـ(مارتن مكدرموت) طبع في الولايات المتحدة الأمريكية عام (١٩٧٠م).

أ- ترجمة الكتاب أعلاه إلى اللغات الأخرى المترجم أحمد أرام طبع دار الترجمة، بيروت.

ب- تعريب الكتاب أعلاه إلى اللغة العربية تعريب علي هاشم طبع مجمع البحوث الإسلامية (١٤١٣هـ)، طهران.

جـ- تعريب الكتاب أعلاه إلى اللغة العربية تعريب رضوان السيد نشر معهد الآداب الشرقية، بيروت ١٩٨٦هـ.

٤- الشيخ المفيد الرجل الذي أحببناه منذ ألف سنة لعبد الحميد الحساني (١٤١٣هـ).

٥- آراء الشيخ المفيد في الإمامة، باللغة الفرنسية.

٦- وجه تسمية المفيد بالمفيد تأليف إسماعيل المازندراني (١٤١٣هـ).

٧- الشيخ المفيد مؤرخاً، للأستاذ عبد الحسين الرحيم رسالة ماجستير كلية الآداب، جامعة بغداد (١٩٨١م).

٨- جهود الشيخ المفيد الفقهية ومصادر استنباطه رسالة ماجستير كلية الفقه، جامعة الكوفة (١٩٨٩م).

٩- الشيخ المفيد للسيد الخامئني.

هناك مؤلفات فضلاً عن المخطوطات المحققة من كتب المفيد منها الذكرى الألفية لوفاة شيخنا المفيد.

وجود عشرات البحوث والدراسات المختلفة بشتى العناوين والأنشطة في مختلف المجلات والأنشطة الثقافية والعلمية...

عرض موجز لأبرز مؤلفاته وجهده العلمي وفق محاور الشريعة

بدءاً بكتب علم الكلام الذي يختص بالدفاع عن العقيدة وتوضيح الأصول والقواعد العامة للدين الإسلامي وبيان التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد وما يتصل بها من المسائل الاعتقادية.

فقد عالج الشيخ المفيد هذه الموضوعات وغيرها بأسلوب سهل بعيد عن الغموض والإبهام حيث يمثل الأسلوب العربي الرصين بلاغة وإيجازاً ووضوح العبارة وسهولتها ومناقشة الآراء بأسلوب صريح وهادئ معتمداً على الأدلة العقلية وهذا يتفق والاتجاهات الفكرية لذلك العصر الذي يمثل القمة حيث ازدهرت فيه الحركة الفكرية بوجه عام ونشطت فيه المعارف والعلوم العقلية والنقلية وبلغت الثقافة الإسلامية أوجها.

وكان من مميزات ذلك العصر وصول النقاش والجدل وتوضيح الآراء إلى أعلى المراحل بين الفرق والمذاهب.

حتى بلغ في هذا العلم مرحلة كبيرة حتى كان يعد في طليعة المفكرين

والمتكلمين الإسلاميين. فقد كتب عنه في جميع أنحاء العالم وعقدت من أجله المؤتمرات العلمية فقد ألف عنه أحد المستشرقين كتاباً يبدو من خلال عنوانه خير شاهد على ما ذكرناه وهو (نظريات علم الكلام عند الشيخ المفيد بقلم مارتن مكدرموت) وعندي نسخة منه.

وكانت له القابلية في الجدل والمناظرة والمناقشة والاحتجاج والدفاع عن العقيدة حتى كان له ولتلميذه الشيخ الطوسي كرسي الكلام فكان لا يعطى إلا لمن له الاستحقاق والكفاية والأهلية لارتقائه.

وكان من أبرز مؤلفاته بهذا الخصوص:

١ـ أوائل المقالات في المذاهب والمختارات.

٢ـ تصحيح الاعتقاد وهو بمثابة رد ونقد بناء على ما أورده أستاذه ابن بابويه الصدوق من آراء كانت محل نظر وبيان ومناقشة وتوقف.

وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على رفعة المستوى العلمي وإيراد النقد البناء والمناقشة الجادة في سبيل الوصول إلى الرأي السديد الصائب حتى وإن كان أستاذاً. وهذا يوضح المستوى الرفيع من الثقافة واتساع الذهن والفكر.

فهذا يتوضح بصورة جلية من خلال ما رد به المفيد على أستاذه الصدوق المتوفى (٣٨١هـ/٩٩١م). موضحاً وشارحاً كرد وتعقيب على مسائل عديدة أبرزها:

١ـ القضاء والقدر.

٢ـ الصفات الإلهية.

٣ـ العصمة وغيرها...

أما بخصوص كتابه أوائل المقالات في المذاهب المختارات:

إن تتبع تاريخ الأديان وآراء الملل وعقائدها ونحلها من المواضيع الهامة في تاريخ حياة المجتمع البشري، فأنه يظهر من خلال الإطلاع على تلك الآراء والعقائد درجة الرقي العقلي لتلك الأمم الذين اعتنقوها وشخصيات مؤسسيها فالبحث عن ذلك بمنزلة البحث عن تاريخ الفكر البشري وتطوراته المختلفة في مختلف العصور التي مرت عليه وحصل فيها من الرقي والتكامل العقلي وقد كانت الأمصار الإسلامية وحواضرها الكبرى ميداناً لمناقشات الفرق المختلفة ومجادلاتهم وخاصة بغداد حاضرة العالم الإسلامي آنذاك. التي كانت ميداناً خصباً للمدارس الفكرية والكلامية والمجادلات والمناظرات والمساجلات.

فكانت هذه الأسباب ونظائرها علة لتصدي المفيد لتأليف هذا الكتاب وبيان آراء مذهبه ومعتقده في الأصول الإسلامية ومختلف المسائل الكلامية المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، وبين من يوافقهم فيها من سائر الفرق الإسلامية من معتزلة وغير معتزلة ثم ما يتميز فيه الإمامية عن سائر الفرق في بعض المسائل فقد قال عنه

(مارتن مكدرموت): (إن الشيخ المفيد كان فقيهاً فضلاً عن كونه أحد علماء الكلام)[١٤] فهو إلى جانب كونه عالماً ضليعاً في الفقه فقد استخدم براعته في المزج بين خطي الفقه والكلام.

أما في جانب علم الحديث

فكان يعد من الذين لهم الفضل في حفظ التراث الحديثي لأغلب الروايات فكانت كل كتبه الفقهية وفتاواه استدلالية تعتمد النص سواء أكان قرآناً أم سنة مما حدا بالشيخ الطوسي رحمه الله الذي قام باستخراج الروايات الموجودة في كتاب (المقنعة في الفقه) ونظمها في كتاب حديثي ضخم (تهذيب الأحكام) والذي عد من أهم الكتب الأربعة المعتبرة الحديثية عند الإمامية قباله الكتب الستة لدى أخواننا في المذاهب الإسلامية فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى استيعاب الشيخ المفيد للجهد الحديثي سواء أكان ذلك الجهد نبوياً أم إنه عن طريق أئمة آل البيت عليهم السلام.

فكان جل اهتمام المفيد للأحاديث والروايات التي كانت تعد المصدر الثاني حيث كان هذا المصدر هو الموضح والمبين والمقيد والمخصص لما ورد في المصدر الأول الأساسي وهو الكتاب العظيم.

وترى كذلك الروايات يوردها بصورة واضحة من خلال كتبه. الخاص بالأخبار كـ(الإرشاد) والعرض التاريخي كـ(مسار الشيعة) ومن الجدير بالبيان إنه عندما يورد الرواية والحديث يذكره متناً وسنداً.

أما على صعيد علم أصول الفقه

فيعد المفيد رحمه الله من مؤسسي

علم الأصول كما ذكره السيوطي في أوائله بما نصه: (ونظير كتاب الشافعي في صغر الحجم وتحرير المباحث كتاب أصول الفقه للشيخ المفيد)[١٥].

وله مؤلفات عديدة بهذا المجال العلمي منها:

١ـ أصول الفقه.

٢ـ النكت في مقدمات الأصول.

٣ـ مختصر أصول الفقه.

تعقيب: على الرغم من أن كتاب أصول الفقه صغير الحجم واختصار مباحثه إلا إنه جمع أغلب المواضيع الأصولية الأساسية بصورة مختصرة جداً ولكنها غير مخلة وتفي بالغرض وبأسلوب رائع جداً.

ومن الجدير بالذكر والإشارة إن كتاب أصول الفقه قد تم طبعه وتحقيقه من قبل مركز الدراسات والبحوث في بيروت عام (١٩٨٨م). وتوجد لدي نسخة منه. وهو على اختصار مواضيعه وسهولة طرحها لكنه ذو أهمية بالغة في هذا المجال العلمي.

هذا ما أورده تلميذه الشيخ الطوسي مقيماً للكتاب بما نصه: (ولم يعهد لأحد من أصحابنا في هذا المعنى إلا ما ذكره شيخنا أبو عبد الله رحمه الله في المختصر الذي له في أصول الفقه)[١٦].

وبهذا الإيراد المهم من قبل شيخ الطائفة يعد شيخنا المفيد هو من الأوائل في هذا الصدد.

لقد كان عصر الشيخ المفيد فاتحة عهد جديد في الفقه حيث خرج الفقه في هذا العصر من دور الجمود على نصوص الكتاب والسنة الشريفة حيث كانوا ملتزمين بالروايات والأخبار فضلاً عن القرآن الكريم إلى دور استخدام القواعد والأصول بشأن البحث الفقهي حيث أفرد بكتابات خاصة لها ثقلها الاجتهادي الاستنباطي.

حيث نرى أن أول وأقدم نص وجد تطرق إلى العقل هو ما ذكره الشيخ المفيد في رسالته الأصولية آنفة الذكر. وهذا ما أكده الشيخ المظفر في أصوله في الجزء الثالث (ص١٢٢).

مما حدا بتلامذته بالسير على نهج أستاذهم والبحث والكتابة بهذا العلم الجليل. فقد ألف الشيخ الطوسي كتاب (عدة الأصول)، والسيد المرتضى كتاب (الذريعة) وهما من الكتب الأصولية القيمة وبعدهما الكراجكي في المختصر الأصولي الذي سمي بـ(التذكرة) وغيرها.

الدراسات الفقهية

فقي مجال الدراسات الفقهية فهو أول من ألف الموسوعة الفقهية الاستدلالية، وهي (المقنعة في الفقه) فقد كان هذا المؤلف الجليل يعد الأساس والركيزة الأولى للفقه الإسلامي ترتيباً للأبواب الفقهية من كتاب الطهارة أي النظافة الشرعية مروراً بكل الموضوعات

الفقهية التي يحتاجها الفرد المسلم مقرونة بالدليل سواء من الكتاب العزيز أم السنة الشريفة أو كليهما وهو في نفس الوقت منهج المحدثين حتى أصبح هذا الترتيب والتبويب الذي انتهجه المفيد بمثابة خطوط عريضة للفقهاء الذين جاؤوا من بعده.

وكان ـ كما ذكرا آنفاً ـ كتاباً مهماً على صعيد الاستدلال بالأحاديث والروايات مما حدا بتلميذه الشيخ الطوسي أن يستخرجها وينظمها بكتاب حديثي له أهمية على صعيد الروايات عند الإمامية إن لم نقل من أهمها وهو كتاب (تهذيب الأحكام) ويعد كذلك أول من ألف من الفقهاء والعلماء في الفقه المقارن وهو كتاب (الإعلام فيما اتفقت عليه الإمامية من أحكام) حيث قارن فيه بين الفقه الإمامي والمسائل الفقية لدى فقهاء المذاهب الإسلامية.

وكذلك كتاب (أحكام النساء) وهو كتاب فقهي فريد من نوعه حيث لم أجد لحد الآن عند جميع الفقهاء لكل المذاهب الإسلامية من كتب بمثله فهو كتاب يخص كل الأحكام الشرعية التي تهم المرأة من الطهارة إلى الديات والذي كتبه بناء على طلب السيدة الجليلة فاطمة بنت الأطروش بنت ملك طبرستان والدة الشريفين.

وعنده جهد فقهي كبير جداً لا يسع المجال لعرضه، وقد تميز جهده الفقهي بمميزات منها:

على الرغم من كونه يمثل أهل الفتوى ومن مجتهدي الإمامية الأوائل إلا أن فتاواه تمثل نصوصاً شرعية من خلال استعماله للدليل من الكتاب والسنة.

وكذلك تميز بتفصيل المفاهيم الشرعية وتوضيحها حتى يوضح المسألة من جميع الوجوه الفقهية والعلمية وما يحيطها من مسائل أخرى، تتعلق بالحكم الفقهي.

أكتفي بهذا القدر وختاماً أرجو من الله العلي القدير أن أكون قد وفقت ولو بجزء يسير خدمة لشريعة المصطفى ﷺ وأن ينال الرضا. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ■

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ١١/٨.
(٢) نسبة إلى بغداد، الطوسي، الاستبصار، ٢٩٨/٤.
(٣) نسبة إلى الكرخ، العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ١٩٩/٣.
(٤) نسبة إلى عكبرا وهي بليدة على نهر دجلة من ناحية الدجيل، ابن الأثير، اللباب، ١٤٦/٢.
(٥) نسبة إلى نسبه العربي العريق إلى قحطان، النجاشي، الرجال، ص٣١.
(٦) نسبة لأحد أجداده (الحارث)، الشهيد الأول، كتاب الأربعين، ص١٨٤.
(٧) ينظر: كامل الشبيبي، الفكر الشيعي، ص٩٢.
(٨) مسكويه، تجارب الأمم، ٤٠٨/٦.
(٩) الطوسي، الفهرست، ص١٨٦-١٨٨.
(١٠) صاحب نصار، الشيخ المفيد، ص٣٠-٦٥.
(١١) القمي، الكنى والألقاب، ٢٤٤/١.
(١٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٠٦/٩.
(١٣) ابن حجر، لسان الميزان، ٢٢٣/٤، الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٣٠/٤.
(١٤) مارتن مكدرموت، نظريات علم الكلام عند الشيخ المفيد، الناشر دار الشروق، بيروت (١٩٨٦م) في الإنكليزية، ص٧.
(١٥) ينظر: الأوائل، للسيوطي، وكذلك، الشيعة وفنون الإسلام، حسن الصدر، ص٧٨.
(١٦) ينظر: عدة الأصول، الطوسي، طبع حجر، ص٢.

« نزيل مصر وشاعر العصر »

عمارة اليمني.. شاعر الفاطميين

أنمار معاد المظفر •

اسمه ونسبه

يتابع هو عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان بن أحمد الحكمي المذحجي اليمني الملقب بنجم الدين[1] والمكنى بأبي محمد[2] أو أبي حمزة[3] أو أبي الحسن[4]، عالم فقيه مؤرخ كاتب شاعر. هو من قبيلة الحكم بن سعد العشيرة من مذحج كبرى القبائل القحطانية، وهو من بيت الرئاسة فيها إذ كانت رئاستها تنتهي لزيدان بن احمد جدّه لأبيه والمثيب بن سليمان جدّه لامه[5]، ثم إلى ولديهما من بعدهما، يقول عمارة (ولقد أدركت عمي علي بن زيدان وخالي محمد بن المثيب ورئاسة حكم بن سعد العشيرة تقف عليهما وتنتهي إليهما)[6]. وكان أبوه - واسمه علي

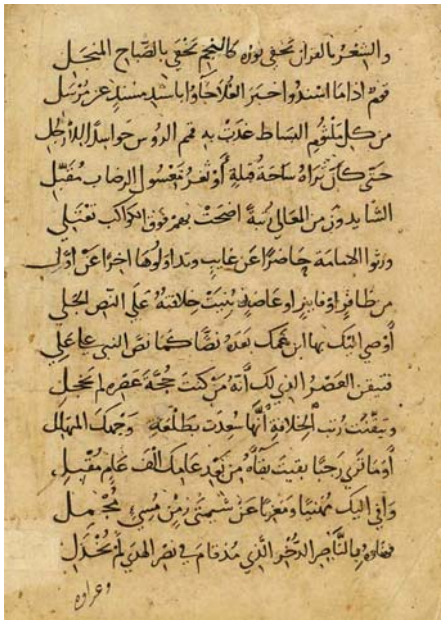

صفحة من ديوان عمارة المخطوط في كوبنهاگن

أيضاً ـ الشخصية الثالثة بعد عمه وخاله.

وقد جمعت أسرته مع السيادة والرئاسة حب العلم والمعرفة إذ يتحدث عمارة عن جده قائلاً (كان زيدان يقول: أنا اعدّ أسلافي أحد عشر جداً ما منهم إلاّ عالم مصنف في عدة علوم)[٧]. وعن زيدان هذا يقول العماد الأصفهاني: (كان ذا قدرة على النظم الحسن وبلاغة في اللهجة واللسن وشعره كثير وعلمه غزير)[٨]. كما كان أحد أخوة عمارة وهو يحيى عالماً بأيام الناس[٩]. وقبيلته وأهله معتدّون بأصالتهم ويمتازون بفصاحتهم ومحافظتهم على العربية إذ كانوا (لا يساكنهم حضري ولا يناكحونه ولا يجيزون شهادته ولا يرضون بقتله قوداً بأحد منهم ولذلك سلمت لغتهم من الفساد)[١٠]، وينقل عمارة عن نفسه أن فقهاء زبيد كانوا يتعجبون أيّام صباه من كونه لا يلحن في شيء من الكلام[١١].

ولادته ونشأته

ولد عمارة عام٥١٣هـ كما قال بعض من ترجم له[١٢] أو عام ٥١٥هـ كما قال أكثرهم[١٣] وعمارة نفسه ـ وهو المؤرخ ـ لم يحدد تاريخ ولادته بل اكتفى بالقول انه دخل زبيد عام ٥٣٠هـ وهو دون العشرين[١٤].

أما مكان ولادته فقد ذكر عمارة في كتابه (النكت العصرية)[١٥] أنها كانت في تهامة باليمن في مدينة مرطان من وادي وساع. إلاّ أن عمارة نفسه ذكر في كتابه (تاريخ اليمن)[١٦] أن ولادته في الزرائب وان الزرائب وطن أهله ومحل سكناهم، وعليه فأمّا أن الزرائب ومرطان اسمان لمدينة واحدة أو أن الزرائب إقليم يضم مدناً منها مرطان[١٧].

تقلّب عمارة في موطن قبيلته ومغنى أجداده في كنف أسرة ذات جاه عريض وبقي على هذا الحال حتى عام ٥٣٠هـ[١٨] إذ بعثه أبوه إلى زبيد لطلب الفقه بصحبة الوزير مسلم بن سحت فهبطها عمارة ولازم طلب العلم فيها لمدة أربع سنوات مكباً على درسه حتى أنه لم يكن يخرج من مدرسته طوال السنوات الأربع إلاّ لصلاة الجمعة[١٩]. وكان قد تفقه خلال هذه المدة على المذهب الشافعي على يد الفقيه أبي محمد عبد الله بن القاسم الأبّار رأس الشافعية في زبيد وقتذاك[٢٠].

وفي السنة الخامسة ذهب إلى زيارة والديه ثم عاد إلى زبيد[٢١].

بين زبيد وعدن

عاد عمارة إلى زبيد وصار أستاذاً يقرأ عليه الطلبة الفقه الشافعي[٢٢]. وخلال هذه الفترة ذهب حاجاً إلى مكة بصحبة الملكة الحرة أم فاتك آل نجاح ملك زبيد وفي سفرته هذه عرفته الملكة الحرة وقربته وعن طريقها تعرف إلى الوزير القائد أبي محمد سرور الفاتكي القائم بدولة فاتك صاحب زبيد[٢٣] ومن هنا بدأت علاقته ببلاط آل نجاح ملوك زبيد وبدأ نجمه بالسطوع وصار موضع ثقة الملكة الحرة ووزيرها سرور حتى أنهما أرسلاه إلى عدن على إثر أزمة اقتصادية مرت بها زبيد كي يتجّر بشراء البضائع الرخيصة في زبيد وبيعها في عدن وزوداه بالمال لأجل ذلك[٢٤]. فذهب عمارة إلى عدن تاجراً واستطاع خلال سفرته الاتصال بآل زريع حكام عدن وبرأسهم محمد بن سبأ ومدحهم بشعره وبلغت علاقته بهم درجة عالية من الاختصاص والمودة فحصل عمارة على صحبة ملوك الحاضرتين وصار خلال السنوات الممتدة بين سنة ٥٣٨و٥٤٨هـ من المقدمين في بلاطي الدولتين ويقول عمارة

بأنه (ما من أهل دولتي زبيد وعدن إلاّ من يغار على نصيبه من مجالستي ومؤانستي)[٢٥].

إلاّ أن عمارة في الواقع كان أقرب إلى آل زريع حكام عدن منه إلى آل نجاح في زبيد وكان آل زريع من دعاة الفاطميين[٢٦] مما أثار حفيظة أهل زبيد وملوكهم - وهم من أهل السنة - عليه إذ كان التنافس السياسي والمذهبي بين آل زريع وآل نجاح على أشده، كما قام حساده ببث الدعايات ضده فهمّ أهل زبيد باغتيال عمارة فخرج حاجاً سنة ٥٤٩هـ إلى مكة[٢٧].

وفي موسم الحج توفي أمير الحرمين هاشم بن فليتة الحسني وولي مكانه ابنه قاسم بن هاشم فكلف الأمير الجديد عمارة بالسفارة عنه إلى مصر حيث دولة الفاطميين[٢٨].

السفارة إلى مصر

ذهب عمارة سفيراً عن أمير الحرمين إلى مصر حيث أكبر دولة شيعية آنذاك فوصلها في شهر ربيع الأول من عام ٥٥٠هـ[٢٩] والخليفة يومها هو الفائز بن الظافر الفاطمي ووزيره هو الملك الصالح طلائع بن رزيك الأرمني شاعر أهل البيت. دخل عمارة القاهرة حاضرة الفاطميين وذهب إلى قصر الخلافة حيث قام باستقباله الملك الصالح طلائع في قاعة الذهب فانشد عمارة قصيدة امتدح فيها الخليفة الفائز بنصر الله ووزيره الملك الصالح أولها[٣٠]:

الحمد للعيس بعدٍ العزم والهمم
حمداً يقوم بما أولَت من النعم

يقول فيها:

ورحن من كعبة البطحاء والحرم
وفداً إلى كعبة المعَروف والكرم
فهل درى البيت إني بعد فرقته
ما سرت من حرمٍ إلاّ إلى حرمِ

يقول عمارة (وعهدي بالصالح وهو يستعيدها في حال النشيد مراراً والاستاذون واعيان الأمراء والكبراء يذهبون في الاستحسان كل مذهب)[٣١].

وما انتهى من إنشاد قصيدته حتى أغدقت عليه الخلع والهدايا وأقام عمارة في مصر (في أرغد عيش وأعز جانب)[٣٢] إذ ضمه الملك الصالح إلى سلك جلسائه من العلماء والأدباء كالقاضي الجليس ابن الحباب السعدي الاغلبي والمهذب بن الزبير وابن قادوس وغيرهم. وهو خلال ذلك تنثال عليه صلات الصالح والأمراء وموظفو الدولة يتسابقون على دعوته إلى ولائمهم.

وفي شوال قفل راجعاً إلى مكة فأدرك الحج والزيارة وكلفه قاسم بن هاشم بن فليتة ببيع فضة باب الكعبة في زبيد بعد تبديله فتوجه إلى زبيد في صفر من عام ٥٥١هـ ومن زبيد حج حجته الثالثة إلى مكة[٣٣].

السفارة الثانية

كلف عمارة بسفارة ثانية إلى مصر من قبل ابن فليتة بسبب جناية جناها خدمه على حجاج مصر والشام[٣٤] فتوجه عمارة إلى مصر وكان الخليفة لا يزال هو الفائز بنصر الله الفاطمي، وبدا لعمارة أن يتخذ مصراً وطناً له فلم يفارقها حتى نهاية حياته.

عمارة في مصر

استوطن عمارة مصراً وألقى رحله في كنف الفاطميين ووزيرهم الصالح طلائع بن رزيك الذي أختص به عمارة وأعجب به أيّما إعجاب حتى كأنه وقف شعره عليه وعلى آل رزيك (واتى فيهم بما بهر العقول) كما يقول القلقشندي[٣٥]. وصار عمارة يتقلب في بلاط الفاطميين معززاً مكرماً

(فكان عندهم بمنزلة الوزير)[٣٦] وأحسنوا إليه وبالغوا في برّه و صار الشاعر الأول في البلاط وكانت له مقابل ذلك رسوم ورواتب.

عاصر عمارة في مصر خليفتين من خلفاء الفاطميين هما الفائز بنصر الله (ت:٥٥٥) والعاضد لدين الله (ت:٥٦٩) آخر خلفاء الفاطميين. وإن كان عمارة لم يكثر من مدح الفائز فقد أكثر من مدح العاضد وقال فيه قصائد كثيرة منها قوله يهنيه بتولي الخلافة ويعزيه بسلفه وابن عمه الفائز:

ورثت الهدى بالنص منه وقوله
أخي وابن عمي أن عدمت يقومُ
وقد سن ذاك المصطفى في ابن عمه
فمن شرفيكم حادثٌ وقديمُ

وقوله فيه:

ورثوا الإمامة حاضراً عن غائب
وتداولوها آخراً عن أوّلِ
من ظافرٍ أو فائزٍ أو عاضدٍ بيت
خلافته على النص الجلي
أوصى إليك بها ابن عمك بعده
نصاً كما نص النبي على علي

وفي ثالثة وفيها يعرض ببني العباس:

يا حجة الله التي بضيائها
هديت بصيرة حائرٍ عن قصده
ورث الهداة الراشدون إمامة
أحيى معالمها بواضح رشده
أن تفتخر بنبوة ووصية
فهما تراث عن أبيه وجده
ما ضركم والمصطفى لكم أب
فقدانكم لقضيبه ولبرده
ما بين آلات النبي وآله
إلا كما بين الحسام وغمده

ومما يجدر ذكره أن السلطة في أواخر العهد الفاطمي كانت بيد الوزراء لا سيما في عهدي الفائز والعاضد الفاطميين اللذين نصّبهما الملك الصالح وهما صغيرا السن. وكان الملك الصالح من أقوى الوزراء في ذلك العهد ومن أشدهم حنكة وتمرّساً بالسلطان وكان شيعياً إمامياً صلب العقيدة وهو أول الوزراء المصريين الذين عاصرهم عمارة. وقد أكثر عمارة من مدح الصالح وأهله فمن ذلك قوله:

ألقى الكفيل أبو الغارات كلكله
على الزمان وضاعت حيلة النوبِ
وداخلت أنفس الأيّام هيبته
حتى استرابت نفوس الشك والريبِ
بثّ الندى والردى زجراً و تكرمة
فكل قلب رهين الرعب في الرعبِ

وان مدح عمارة الصالح في حياته فقد رثاه بعد مقتله في أيام العاضد في ١٩ رمضان من سنة ٥٥٦هـ[٣٧] وأكثر التفجّع عليه:

تنكّد بعد الصالح الدهر فاغتدت
مجالس أيّامي وهنّ غيوبُ
أيجدب خدي من ربيع مدامعي
وربعي من نعمى يديه خصيبُ
وهل عنده أن الدخيل من الجوى
مقيمٌ بقلبي ما أقام عسيبُ
وان برقت سني لذكر حكايةٍ
فان فؤادي ما حييت كئيبُ

وقال فيه أيضاً:

غضب الإله على رجالٍ أقدموا
جهلاً عليك وآخرين أشاروا
لا تعجبنْ لقدار ناقة صالح
فلكل قوم ناقةٌ وقدارُ
أحللت دار كرامة لا تنقضي
أبداً وحلّ بقاتليك بوارُ

ووزر للعاضد من بعد الملك الصالح ابنه الملك العادل رزيك بن الصالح والملقب أيضاً بالملك الناصر وقد اختص به عمارة أيضاً لاسيما وان لعمارة علاقة وطيدة بالملك

العادل منذ أيام أبيه الصالح وقد مدحه بقصائد عدة وكان كثيراً ما يقرن مدحه بمدح العاضد الفاطمي، ومن شعره فيهما قوله:

لولا إتباع قريش دين جدكم
طوعاً وكرهاً لما دانت لها العربُ
وليت أن النفوس القوم إذ قعدت
عن القيامِ بنعماكم بما يجبُ
تجنبتكم بسجليها متاركةً
فلا نصيبٌ أنالتكم ولا نصبُ
ولو تولت بنو رزيك نصرتكم
في سالف الدهر ما نابتكم النوبُ
إن فاتهم حرب صفين فقد بلغوا
في مصر من نصركم أضعاف ما طلبوا

وقد قتل الملك العادل في محرم من عام ٥٥٨هـ على يد شاور بن مجير السعدي الهوازني[٣٨] الذي تولى الوزارة للعاضد، وفي أيّامه استقال عمارة عن عمل الشعر إذ طلب من شاور أن يعفيه من ذلك وان يجعل ماله من الرسوم على حكم الضيافة[٣٩].

على أن عمارة قد مدح شاوراً أيضاً إذ يقول فيه:

حمي الوطيسِ فخضته بعزائم
علّمن حسن الصبرً من لم يصبرِ
ضجر الحديد من الحديد وشاورٌ
من نصر آل محمدٍ لم يضجرِ
حلف الزمان ليأتينّ بمثله
حنثت يمينك يا زمان فكفّرِ

ولم تدم أيام شاور حتى ثار عليه ضرغامَ بن سواد واستولى على الوزارة بعد هرب شاور إلى الشام حيث دولة نور الدين زنكي[٤٠] ويقول عمارة عن ضرغام (وكنت في أيّامه خائفاً منه متعلقاً بصحبة أخيه ناصر المسلمين)[٤١].

والظاهر أن عمارة حاول التقرب من ضرغام إذ مدحه وأخوته كما في قوله:

لم أدر والتشبيه يقصر عنكم
أغيوث نزلٍ أم ليوث نزالِ
طالت بأيديهم قصار صوارم
باتت بها الأعمار غير طوالِ
وخلطتم أنصاركم بنفوسكم
فالناس من مولى لكم وموالِ

ولكن وزارة ضرغام لم تطل إذ ما لبث شاور أن عاد تسانده جيوش نور الدين زنكي بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين بن أيوب بعد أن وعد شاور نور الدين بان يعطيه ثلث خراج مصر إن هو ساعده في استعادة منصبه[٤٢]. وبالفعل عاد شاور إلى دست الوزارة، وقد مدح عمارة شاوراً في وزارته الثانية، ثم عادت الأمور إلى الاضطراب إذ ان شاوراً لم يفِ بوعده لزنكي وطلب من شيركوه العودة بالجيوش النورية إلى دمشق وأرسل بالوقت نفسه إلى أملريك ملك بيت المقدس يخوّفه من نور الدين إن هو ملك مصراً وكان ذلك بداية الخلاف الذي أدى إلى سقوط الدولة الفاطمية إذ اختلف شاور بعد جملة من الإحداث مع الإفرنج فقاموا بحصار القاهرة وكادت أن تسقط بأيديهم لولا أن تداركها أسد الدين شيركوه[٤٣]، وقام صلاح الدين الأيوبي بقتل شاور في ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ فولي الوزارة شيركوه بن شادي ولقبه العاضد بالملك المنصور وبعد شهرين وخمسة أيام توفي شيركوه فاستوزر العاضد صلاح الدين بن أيوب بن شادي ولقبه بالملك الناصر[٤٤].

مع الأيوبيين

أنقذ أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الخلافة الفاطمية من السقوط تحت قبضة الإفرنج فكان طبيعياً من عمارة

أن يمدحهم ويسجّل لهم هذا الموقف وهو ما فعله كما في قوله:

حميتهم من الإفرنج سرب خلافة
حريم لها مجد الإمام من الذعرِ
ولما استغاث ابن النبي بنصركم
ودائرة الإسلام أضيق من شبرِ
جلبتم إليه النصر أوساً وخزرجاً
وما اشتقت الأنصار إلاّ من النصر

وما كان مدحه لهم إلاّ من أجل ولائه للفاطميين. أصبح صلاح الدين الأيوبي وزيراً للعاضد بالله الفاطمي وكما ذكرنا سابقاً فان السلطة في أواخر العهد الفاطمي كانت بيد الوزراء وان الخليفة كان له مجرد الاسم، وقد زاد صلاح الدين من عزلة الخليفة الفاطمي وصار يعمل على زيادة نفوذه حتى تجرأ في مطلع عام ٥٦٧هـ على قطع خطبة الفاطميين وصار يخطب للمستضيء العباسي وأعقب ذلك موت العاضد يوم عاشوراء[٤٥] فأصبح صلاح الدين سيد مصر الأوحد (وأخذ يوطد ملكه الجديد وينشر مذهبه السني بكافة الوسائل ويقضي على كل ما هو شيعي أو شبه شيعي)[٤٦]. فعزل القضاة الشيعة وأبعد رجالات الدولة الفاطمية وقطع ما كان لهم من الرسوم ومن أولئك المبعدين عمارة.

كان عمارة من الموالين الصادقين للدولة الفاطمية لذلك فقد عزّ عليه أن يرى زوال تلك الدولة ولكن لم يكن في اليد حيلة خاصة بعد وجود حاكم كصلاح الدين الذي كان يضرب بيد من حديد كل من خالفه. فما كان من عمارة في السنتين اللاحقتين إلاّ أن يحاول التقرب الظاهري من الأيوبيين فقام بمدحهم بقصائد عدة فمدح نجم الدين أيوب بن شادي أبا صلاح الدين ومدح تورانشاه بن أيوب والملك العادل بن أيوب ومدح صلاح الدين نفسه. إلا أن الملاحظ من قصائده في الأيوبيين هو غياب المشاعر الصادقة التي كانت بارزة في قصائده في الفاطميين. فعمارة في مدحه للأيوبيين كان يركز على الجانب المادي لاسيما وان الأيوبيين كانوا قد قطعوا ما كان له من الرسوم.

فنراه يقول من قصيدة في مدح صلاح الدين:

عجبت من الأرزاق امتص ثمدها
وتروى بصافيها رجال وتغرقُ
ولكني أظن الرزق يهوى تحرّقي
عليه وطيب العود حين يحرقُ
واحسب أن الجود أما حكاية
مضى أهلها أو صورة ليس تخلقُ
وإلاّ فما بالي كسدت وفي فمي
معادن در سوقها الدهر ينفقُ

ولا يخفى ما في البيت الثالث من التعريض أو الهجاء بعينه.

ونرى عمارة أكثر صراحة في قوله مخاطباً صلاح الدين:

فقد صارت الدنيا إليكم بأسرها
فلا تشبعوا منها ونحن جياعُ
إذا لم تريدونها فكونوا كمن مضى
ففي الناس أخبار لكم وسماعُ

ولم يكن عمارة يستجدي من الأيوبيين بل كان ـ في نظره ـ مطالباً بحقه، يقول في مدح نجم الدين أيوب:

تركت قصدك لما قيل انك لا
تجود إلاّ على من مسّه العدمُ
ولستُ بالرجل المخفي موضعه
ولا لنزر من الإحسان اغتنمُ
ولا إلى صدقات المال اطلبها
ولا عمى نال أعضائي ولا صممُ
وإنما أنا ضيف للملوك ولي
دون الملوك لسان ناطق وفمُ

أما قصيدته المسماة (شكاية المتظلم ونكاية المتألم) التي أرسلها إلى صلاح الدين بعد أن تدهور به العيش واشتد به الضنك والتي لم تلق من صلاح الدين أذناً صاغية لعلمه بهوى عمارة في الفاطميين فهي لا تخلو من التقريع والتعريض بل جعلها الصفدي أحد أسباب قتل عمارة[٤٧]. ولولا خوف الإطالة لعرضنا بعض المقاطع منها.

ورغم كل ذلك فان عمارة لم يكن في كل أحواله متظاهراً بمداهنة الأيوبيين فهو قد رثى الدولة الفاطمية وتفجّع عليها أشد التفجّع وبكل صراحة في قصيدته الخالدة:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل
وجيده بعد حسن الحلي بالعطل

التي أوغرت صدور الأيوبيين عليه. وهي أحد أسباب مقتله كما يقول بروكلمان[٤٨].

ونراه يقول في أبيات:

قُطعت يدٌ أضحت قصوركم بها
مهجورة بعد الندى والباسِ
هذي حصون الروم عطّل غزوها
وغزت دياركم بنو العبّاسِ
حتى متى لا تنتهي عن ظلمكم
أبداً ولا لجراحكم من آسِ

بل إن عمارة هجا بعض الأيوبيين كالملك المظفر ابن شاهنشاه بن أيوب:

عظّمتما الأمر وفخّمتماه
وما ابن شاهنشاه إلاّ ابن شاه
ومن تكون الشاة أماً له
فما يكون التيس إلاّ أباه

فكان هذا هو حال عمارة مع الأيوبيين حتى عام ٥٦٩هـ إذ اتفق مع جماعة من الشيعة من أعيان المصريين ورجالات الدولة الفاطمية على الفتك بصلاح الدين وإعادة دولة الفاطميين ومعهم مجموعة من حاشية القصر والجند وبعض أمراء صلاح الدين.

وكان عمارة من أكابر الدعاة إلى هذا الأمر والمحرضين عليه[٤٩] (وعيّنوا الخليفة والوزير وأحكموا الرأي والتدبير وبيتوا أمرهم بليل وستروا عليه بذيل وكان عمارة اليمني الشاعر عقيدتهم ودعا للدعوة قريبهم وبعيدهم)[٥٠].

وكان معه من الأعيان: القاضي المفضل ضياء الدين بن كامل القاضي والشريف الجليس وعبد الصمد الكاتب والقاضي الأعز سلامة العوريس وداعي الدعاة عبد الجبار بن عبد القوي ونجاح الحمامي[٥١]. وكانت خطتهم تتلخص في مكاتبة الإفرنج كي يتجهوا إلى مصر مقابل مال معين فيخرج إليهم صلاح الدين ويرجع من عسكره من وافقهم فلا يستطيع مواجهة الإفرنج ويستولون هم على القاهرة وان لم يخرج صلاح الدين بنفسه بل يكتفي بإرسال العساكر ثاروا هم عليه وأخذوه أخذاً باليد[٥٢]. وكان عمارة قد اضطلع بدور مهم في الخطة إذ قام بتحريض شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخي صلاح الدين على المسير إلى اليمن وفتحها بعدة قصائد أشهرها قصيدته الميمية:

العلم مذ كان محتاج إلى العَلَم
وشفرة السيف تستغني عن القلم

التي تعتبر من أشهر قصائد أثارت الحميةَ في الأدب العربي. والغاية من ذلك إضعاف قوة صلاح الدين العسكرية عن طريق تقليل عسكره[٥٣]. ونجح عمارة في مسعاه إذ توجه تورانشاه إلى اليمن بعد أن اصطحب معه قسماً كبيراً من جيوش صلاح الدين. فأمن عمارة وجماعته من أن يسد تورانشاه مسد صلاح الدين إن هم فتكوا به[٥٤].

مقتله

كان عمارة وأصحابه قد أدخلوا معهم

في هـذا الأمر الشـيخ زيـن الديـن علي بن نجـا الواعظ الحنبلي فوشـى بهم إلى صلاح الدين وسـأله أن ينعم عليه مقابل ذلك بجميع ما لابـن كامل مـن الأمـوال والممتلكات فأجابـه صـلاح الديـن إلـى ذلـك[٥٥]. فألقي القبض عليهم يوم الأحد السـادس والعشرين من شـعبان مـن سـنة ٥٦٩هـ[٥٦] واحضروا إلى صـلاح الديـن (فيم ينكـروا الأمر ولم يروه منكراً)[٥٧] فأمر صلاح الدين بشـنقهم فشـنقوا يـوم السـبت ثانـي شـهر رمضان مـن السـنة المذكـورة فـي القاهـرة بيـن القصرين[٥٨] وكان عمارة قد صلب منكساً بين بابي الذهب وباب البحر[٥٩]. وكانوا قد اتهموا عمارة أيضاً بالزندقة لبيت نسـبوه إليه فأفتى الفقهاء بقتله والبيت:

قد كان أول هذا الأمر من رجل
سعى إلى أن دعّوه سيد الأمم

إلاّ إن أكثر المؤرخين صرّحوا بأن هذا البيت معمول عليه[٦٠].

مذهـبه

عـدّ الشـيخ الأمينـي عمـارة اليمني من الشـهداء على التشـيع[٦١] وكذلـك عدّه من الشـيعة صاحب نسمة السـحر[٦٢] وآقا بزرك الطهراني[٦٣] وآخرون منهم د.شوقي ضيف[٦٤] و د. ذو النون المصـري[٦٥] الذي عقد فصلاً كاملاً للحديث عن تشـيع عمارة. وأقدم من نص على تشيعه - فيما نعلم - هو ابن الأثير[٦٦].

وجعله ابن كثير ينسـب إلى الرفض[٦٧]. ويقول القلقشندي (وعمارة هذا لم يكن على معتقد الشـيعة بـل فقيهاً شـافعياً)[٦٨] ويقول عنه ابن خلكان (وكان فقيهاً شافعياً شديد التعصـب للسـنة)[٦٩] ومثله اليافعـي في مرآة الجنان[٧٠] والأسـنوي في طبقات الشافعية[٧١] وتبعهـم على ذلك د.حسـن سـليمان محمود محقـق كتاب (تاريـخ اليمن) لعمـارة حيث يقـول (واحتفظ عمـارة إلى آخـر لحظة من حياته بمذهب أهل السنة)[٧٢].

ونحن بعد النماذج التي نقلناها من شعره لاسيما ما كان في مدح العاضد - وما سنذكره لاحقاً - لا نجد صعوبة في اثبات تشيعه فشعره خير دليل على ذلك ومن تصفّح ديوان عمارة جزم بتشـيعه قطعاً، وعليه فلا عبرة بما قاله أولئـك وأصـروا عليه مـن منطلـق العصبية.

لكن يبقـى الكلام حول كتاب عمارة (النكـت العصريـة) الـذي هـو كالترجمة الذاتية له ففي هذا الكتاب نجد عمارة يتبرأ من التشـيع إذ يذكر فيه حادثة وقعت له مع الملك الصالح طلائع فـي أوّل دخوله مصراً فضل فيها عمارة الشـيخين كما يذكر في هـذا الكتـاب أبياتاً من قبـل الملك الصالح يدعـو فيها عمارة إلى التشـيع ورفض عمارة ذلك بأبيات أخرى أجاب بها الصالح[٧٣].

والجـواب عـن ذلـك بسـيط فـإن هـذا الكتـاب الّفه عمارة في عهد الأيوبيين كما اسـتظهر ذلك د.شوقي ضيف[٧٤] وجزم به د. ذو النون المصـري[٧٥] وهو ما نجزم به أيضاً والدليـل على ذلك أن عمـارة أرّخ فيه لوزراء مصـر حتى وزارة شـاور الثانيـة قبيل مجيء الأيوبييـن وإذا كان الأمـر كذلـك فمـن الطبيعـي أن ينحـو فيـه عمارة ذلـك المنحى خوفاً مـن بطش الأيوبيين بأن يخفي تشـيعه ويحـاول البـراءة منه في الظاهـر. أضف إلى ذلك أن حادثة تفضيل الشيخين ورفض دعوة الملـك الصالح للتشـيع إنما حدثتـا في بداية مقـدم عمارة إلى مصر كمـا هو واضح من سـياق الكتاب حيث لم يكن قد تشيع بعد ولا ريـب في كونه سـنياً شـافعياً في بداية حياته إلى حين استيطانه مصراً.

أما قوله في قصيدته (شـكاية المتظلم)

التي أرسلها إلى صلاح الدين والتي يقول فيها واصفاً الفاطميين:

مذاهبهم في الجود مذهب سنةٍ
وإن خالفوني في اعتقاد التشيّعِ

فالجواب عنها واضح لما قدمناه.

إذن فعمارة اليمني ابتدأ حياته سنياً شافعياً ثم دخل التشيع بعد استيطانه مصراً وشعره أكبر شاهد على ذلك. إلا أن الكلام يبقى حول مذهبه في التشيع، فهل كان إمامياً أم إسماعيلياً؟

جعل الشيخ الأميني عمارة من الشيعة الإمامية بل عدّه من فقهاء الأمامية ومدرسيهم[٧٦] إلاّ أن الجندي في تاريخه يذكر أن عمارة اعتقد مذهب الإسماعيلية ويذكر أيضاً أن شعره شاهد على ذلك[٧٧]. وجزم بذلك أيضاً د.شوقي ضيف مستدلاً على ذلك بشعر عمارة[٧٨]. وهو ما نذهب إليه أيضاً إذ لو قرأنا شعر عمارة لم نجد ما يدل على إماميته فضلاً عن عدم تصريح المؤرخين بذلك.

بل إن شعر عمارة صريح في إسماعيليته وفي اعتقاده إمامة الفاطميين وعصمتهم ولكي يطمئن قلب القارئ بذلك نورد هذه الأبيات في مدح العاضد:

ولاؤك دَينٌ في الرقاب ودِينُ
وودّك حصنٌ في المعاد حصينُ
وحبك مفروض على كل مسلم
يقول بحب المصطفى ويدينُ
ومالك فوقٌ غير من خلق الورى
وجملة هذا الخلق عندك دونُ
وكل إمام في لياليك هذه
إمامته شك وأنت يقينُ
بقيت على النص الجليّ وغرّهم
قياس على أصل الهوى وظنونُ

فهذه الأبيات وما ذكرناه آنفاً في مدح العاضد تدل بلا ريب على كونه شيعياً إسماعيلياً. ويمكن أن يضاف إلى ذلك أن الفكر الإمامي كان شبه غريب على عمارة بخرف الفكر الإسماعيلي الذي كان بالغ الشيوع في اليمن أيّام نشأة عمارة ومقامه هناك، فآل زريع حكام عدن الذين اختص بهم عمارة كانوا من دعاة الإسماعيلية، وكانت كبرى دول اليمن وهي الدولة الصُليحية التي عاصمتها صنعاء دولة شيعية إسماعيلية وكان الصليحيون يتولون شؤون الدعوة في تلك الأنحاء، ثم إن المذهب اللإسماعيلي هو المذهب الرسمي في مصر حيث أقام عمارة إلى حين مقتله، فكل ذلك قد يجعل الفكر الإسماعيلي أقرب إلىعمارة من الفكر الإمامي. والله هو العالم بحقيقة الحال ■

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ٥٦٣/٢٠، وفيات الأعيان، ابن خلكان، ٤٣١/٣، الغدير، ٤٠٨/٤، معجم الشعراء، كامل سلمان الجبوري، ٧٥/٤.

(٢) كما في طبقات الشافعية، الأسنوي، ٣٢٠/٢، وفيات الأعيان، ٤٣١/٣، شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، ٢٣٤/٤، سير أعلام النبلاء، ٥٩٢/٢٠، وغيرها.

(٣) كما في خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ١٠١/٣.

(٤) كما في مخطوطة ديوان عمارة المحفوظة في كوبنهاكن.

(٥) انظر: النكت العصرية، عمارة اليمني، ص٧.

(٦) المصدر السابق، ص٨.

(٧) المصدر السابق، ص٨.

(٨) خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ١٠٣/٣.

(٩)، (١٠) انظر: النكت العصرية، ص٨، ٧.

(١١) انظر: تاريخ اليمن، عمارة اليمني، ص٥٤.

(١٢) انظر: معجم الشعراء، ٧٥/٤.

(١٣) انظر: سير أعلام النبلاء، ٥٩٣/٢٠، طبقات الشافعية، ٣٢٠/٢، الوافي بالوفيات، ٢٣٧/٢٢، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، د.شوقي ضيف، ص١٥٤.

(١٤) انظر: تاريخ اليمن، ص٥٤.
(١٥) انظر: النكت العصرية، ص
(١٦) انظر: تاريخ اليمن، ص٥٤.
(١٧) انظر: عمارة اليمني، د.ذو النون المصري، ص٢٧-٢٨.
(١٨) انظر: تاريخ اليمن، ص٥٤.
(١٩) انظر: النكت العصرية، ص٢١.
(٢٠) انظر: تاريخ اليمن، ص١٠٦.
(٢١)،(٢٢)،(٢٣)انظر:النكت العصرية،ص٢٢، ٢٣، ٢٦.
(٢٤) انظر: عمارة اليمني، ص٣٨
(٢٥) انظر: النكت العصرية، ص٢٧.
(٢٦) انظر: مصر في عهد الدولة الفاطمية، د.محمد جمال الدين سرور، ص١٤٠.
(٢٧) انظر: عمارة اليمني، ص ٣٩ وما بعدها.
(٢٨) انظر: وفيات الأعيان، ٤٣٢/٣، معجم الشعراء، الجبوري، ٧٥/٤، تاريخ الأدب العربي، د.شوقي ضيف، ص١٥٤.
(٢٩) انظر: طبقات الشافعية، الأسنوي، ٣٢٠/٢.
(٣٠)انظر:النكت العصرية،ص٣٢،وفيات الأعيان،٣٣/١.
(٣١) النكت العصرية، ص٣٤.
(٣٢) وفيات الأعيان، ٤٣٣/٣.
(٣٣) انظر: النكت العصرية، ص٤١، وفيات الأعيان، ٤٣٣/٣.
(٣٤) انظر: عمارة اليمني، ص٤٧.
(٣٥) صبح الأعشى، ٦٠٦/٣.
(٣٦) النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، ابن تغري بردي، ٦٤/٦.
(٣٧) انظر: وفيات الأعيان، ٥٢٨/٢.
(٣٨) انظر: مصر في عهد الدولة الفاطمية، ص١٠٤.
(٣٩) انظر: النكت العصرية، ص٨٦.
(٤٠) انظر: مصر في عهد الدولة الفاطمية، ص١٠٤.
(٤١) النكت العصرية، ص٧٤.
(٤٢)، (٤٣) انظر: مصر في عهد الدولة الفاطمية، ص١٠٥، وما بعدها.
(٤٤) انظر: حسن المحاضرة، السيوطي، ١٩٣/٢.
(٤٥) انظر: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، اليافعي، ٢٨٥/٣-٢٨٦.
(٤٦) عمارة اليمني، ص٥٩.
(٤٧) انظر: الوافي بالوفيات، ٢٤٣/٢٢.
(٤٨) انظر: تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ٤٤٥/٣.
(٤٩) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ٣٤٠/١٢.
(٥٠) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، أبو شامة، ١٨٥/٢.
(٥١) انظر: المصدر السابق، ١٨٦/٢، الكامل، ابن الأثير، ٣٩٨/١١، السلوك لمعرفة دول الملوك، المقريزي، ١٦٢/١.
(٥٢)انظر:الكامل،٣٩٩/١١، البدايةوالنهاية،٣٤٠/١٢.
(٥٣) انظر: البداية والنهاية، ٣٤٠/١٢، كتاب الروضتين، ١٨٦/٢.
(٥٤) انظر: الكامل، ٣٩٩/١١.
(٥٥) انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، المقريزي، ١٦٣/١.
(٥٦)، (٥٧) انظر: وفيات الأعيان، ٤٣٥/٣.
(٥٨) انظر: المصدر السابق، وكذلك: السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٦٣/١.
(٥٩) انظر: شذرات الذهب، ٢٣٥/٤، السلوك للمقريزي، ١٦٣/١.
(٦٠) انظر: وفيات الأعيان، ٤٣٥/٣، سير أعلام النبلاء، ٥٩٤/٢٠، خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ١٠٤/٣.
(٦١) الغدير، ٤٠٨/٤.
(٦٢) نسمة السحر في من تشيع وشعر، ٤٥٦/٢.
(٦٣) طبقات أعلام الشيعة، الثقات العيون في سادس القرون، ص٢١٠.
(٦٤)تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، ص١٥٦.
(٦٥) عمارة اليمني، ص١٠٢.
(٦٦) الكامل، ٣٩٨/١١.
(٦٧) البداية والنهاية، ٣٤١/١٢.
(٦٨) صبح الأعشى، ٦٠٦/٣.
(٦٩) وفيات الأعيان، ٤٣٣/٣.
(٧٠) مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ٢٩٥/٣.
(٧١) طبقات الشافعية، ٣٢١/٢.
(٧٢) تاريخ اليمن لعمارة، ص٦.
(٧٣) النكت العصرية، ص٤٤ وما بعدها.
(٧٤) تاريخ الأدب العربي، ص١٥٥.
(٧٥) عمارة اليمني، ص١٩٧.
(٧٦) الغدير، ٤٠٨/٤.
(٧٧) انظر: نسمة السحر، ٤٥٦/٢.
(٧٨) تاريخ الأدب العربي، ص١٥٥.

المخدرات..
من وجهة نظر الشرع والطب

المخدرات
ضرر لا تبيحه إلا الضرورة

سماحة السيد محمد صادق الخرسان •
أستاذ في الحوزة العلمية

ينابيع

قال الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً).

يكاد المفسرون يجمعون على أن تكريم الإنسان كان بالعقل، بمعنى أن التكريم قد أخذ شكلاً من أشكال الحالة العقلية للإنسان، والسبب واضح في عده تكريماً بعد أن نعرف أن العقل أداة يتوازن الإنسان من خلالها في مواقفه وقراراته.

والعقل يمثل: البوصلة التي إذا ما حددت بشكل دقيق، فسينتظم عمل الإنسان ونحصل على برنامج متكامل ومفيد على صعيد الفرد والحياة.

لذا نجد أن التشريع الإسلامي قد لاحظ هذا الجانب ملاحظة دقيقة ولم يهمله، كما هو الحال في التفاصيل الحياتية العلمية، لأن التشريع الوضعي

في بعض الحالات والمجالات قد لا يركز على هذا الجانب، ولكن التشريع الإسلامي اهتم بالربط بين قضايا الحياة والعقل، حيث لا تكليف إلا للعاقل، ولا حجية لقول غير العاقل، إذ لا يعتبر كلامه ذا دلالة وإفادة، بل يهمل لعدم صدوره من العاقل، وأيضاً لا ذمة مالية لغير العاقل، نعم يحفظ ماله من خلال نصب قيّم ووليّ لذلك، الأمر الذي يدلنا على أنه قد وضع عليه ولاية أو ما يمكن تسميته بالحراسة، كما هيأ له حصانة ليحميه من الاعتداء عليه والانتهاك لحقوقه فجعل عليه الوصاية.

إذن قد أولت الشريعة هذا الجانب عناية خاصة، حيث أعطت للعقل دوراً بارزاً في التشريعات، ومن جملة ذلك النهوض بأعباء الخلافة إلا بالعقل، فكان للعقل دوره على هذا المستوى باعتباره يفعّل الحياة ويحركها إيجابياً، وينمي خلايا النشاط مع مفاصل حياتية متعددة، فيستثمرها الإنسان، فيكون وجوده متميزاً. وإن استعمال المخدرات يمثل حالة عكسية تماماً لذلك الخط البياني العام، لذا كانت الوقفة الجادة إزاء هذا الاستعمال لما يعكسه من ترد على مستوى الفرد أو المجتمع، إذ أن للمخدرات ـ كظاهرة ـ بعدين، نفسي واجتماعي، كما لها التأثير المباشر على التربية ومستوى الثقافة، وهذا ما يؤدي إلى انحطاط الإنسان نحو خط التدني والرذيلة، وهذا على العكس مما أراده سبحانه للإنسان من أن يقود

عندما رأت أن الإنسان إذا فقد عقله فسينهار، وعندها لا يصلح لأن يكون الخليفة الذي قد أعد لمهمات عديدة، لقيادة الحياة وبلورة الحالة إيجابياً نحو الأفضل، فقال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ...)، كما قال سبحانه: بسم الله الرحمن الرحيم (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ)، بما يدلنا على أن غرضاً مهماً من وراء إيجاد الإنسان على هذه البسيطة، فإننا نعتقد أن الإنسان ينفذ دور الخليفة الإلهي.

ومن الطبيعي أنه لا يستطيع

الحياة ويدعم الحركة الحيوية فيها بما يثمر التقدم والازدهار، ومن هنا كانت المتابعة الحازمة حتى لا ينهار بناء الإنسان، سواء على صعيده الفردي أو الاجتماعي، لأنه تعالى عندما خلق الإنسان كرمه وجعل منه خاصة خلقه، وهو النبي الأعظم ﷺ الذي يمثل الحالة المتقدمة على صعيد الوجود الإنساني، وبالتالي فهذه الخصوصية امتاز بها الإنسان من دون المخلوقات الأخرى، فإذا ما فسح المجال للإنسان في أن يفقد بإرادته عقله، فإنه نقض للغرض الأساسي من خلقه وإيجاده أصلاً، وهذا ما لا يفعله المولى الحكيم الذي لا يفعل عبثاً، بل كان الخلق لحكمة متعالية، ألا وهي العبادة بما لهذا المفهوم من شمولية وسعة، بحيث يضم المستويات التي يراد بها التقرب لله تعالى كافة، ليشمل تخصصات علوم الأديان والأبدان وسائر الفروع النافعة بما يخدم الحالة الإنسانية، فإنها من المصاديق الواضحة التي تحقق الهدف من وجود الإنسان، بينما أن استعمال المخدرات يضاد ذلك كله، لذا كان الحكم الشرعي بحرمة استعمال سائر المواد المخدرة إذا كان مستتبعاً للضرر البليغ بالشخص، سواء أكان من جهة:

١ـ زيادة المقدار المستعمل منها.

٢ـ أم من جهة إدمانه، بل الأفضل والأحوط الاجتناب عنها مطلقاً، إلا في حالة الضرورة، فتستعمل بمقدار ما تدعو الضرورة إليه. وإن هذا الحكم الشرعي صريح الدلالة في حرمة ما يضر ضرراً بليغاً غير متسامح فيه عرفاً إلا بقدر حاجته الضرورية، فعندنا محوران يدور حولهما البحث:

المحور الأول: الضرر

إن المعلومات الموثقة التي تؤكدها منظمة الصحة العالمية في تقاريرها، تبين خطورة المخدرات وضررها، وهذا ما يدعونا أولاً لمعرفة الضرر وما المقصود منه، ثم الإطلاع على تلك المعلومات التي توثق علمياً. إن المخدرات مادة ذات استخدامين، أحدهما مضر والآخر مرتبط بالضرورة. فالضرر يمثل حالة مضادة للنفع، ويلزم أن نعرف في البداية أن المضاد المباشر للنفع هو الضرر، وأما الضرر فهو الحالة المتأصلة للضر، وهذا ما يمكن بيانه علمياً بأن الضر بمعنى المصدر، والضرر بمعنى اسم المصدر، والفرق بينهما، أن الأول يمثل الحدث والفعل بما هو، وأن الآخر يمثل الأثر المترتب على الحدث.

وهذا الضرر على مستويات:

١ـ فقد يكون بليغاً لا يتحمله العقلاء ولا يقدمون عليه.

٢ـ كما قد يكون مقبولاً لديهم ويقدمون على تحمله.

ومن الأمثلة للمستوى الأول، هو الآثار المترتبة على استعمال السموم القاتلة.

ومن الأمثلة للمستوى الآخر هو الآثار المترتبة على استعمال الأطعمة الدسمة، أو الأوبئة البيئية، أو التأثير الجانبي لاستعمال بعض الأدوية نتيجة سوء الاستخدام أو الإفراط في استعمالها.

فنجد أن الحالة النوعية للعقلاء يقبلون هذا المستوى دون سابقه الأول، فلا يعتبرون من يقدم عليها مقدماً على الانتحار أو مجازفاً. ومن أوضح ما يدل على ذلك ويشهد له هو سكن العقلاء في بلدان ذات مواقع ملوثة بيئياً نتيجة الأدخنة أو الأوبئة أو سائر المواد الأخرى، حتى يصل الأمر إلى المواد المشعة، وإن هذا يؤيد التقسيم الشرعي الفقهي للمواد المخدرة، حيث نجد العقلاء لا يقرون فعل المنتحر أو المغامر بتناول جرعة كبيرة من السموم أو المواد المضرة الأخرى، ويعتبرونه في حالة غير متوازنة، فيحذرونه في التعامل أحياناً، وهذا ما يكشف عن مدى تأثير العقل عقلائياً وشرعياً في شخصية الإنسان ومصداقيته واعتباره الموضوعي، إذ ماعدا ذلك يصبح كآلة وأداة لا يصلح لتوجه التكاليف ولا إناطة المهمات به إطلاقاً، فيلاحظ أن الشريعة قد فعّلت دور العقل، وأعطته مساحة واسعة للتحكم بالقرارات، وهو ما يعتبر حالة نموذجية، إذا ما قورن الحال بالتشريعات الوضعية، حيث أنها لا تلتزم معه جانب الجد، بل تقبل منه بعض حالات الفقدان الإرادي للعقل، ولا تحاسبه أو تعاقبه على ذلك، وهذا ما يفسح المجال لتردي الوضع الاجتماعي العام، إذ لا يؤمن من فقد عقله طوعياً على كل شيء، كما لا يؤمل منه شيء بما ينتج ثماراً نافعة على صعيد الفرد أو المجتمع.

وأما كون المعلومات المتوافرة الموثقة علمياً وعالمياً تشير إلى حقائق مذهلة، فهي كالآتي:

١ـ إن أكثر من (١٨٠) مليون شخص يعانون من الإدمان على المخدرات.

٢ـ إن أكثر من (١٢٠) مليار دولار هي كلفة المخدرات للمجتمعات والدول سنوياً.

٣ـ التسبب في جرائم كثيرة وحوادث مرورية نتيجة المخدرات وتأثيرها.

٤ـ التسبب في أضرار اقتصادية بالغة نتيجة ذلك أيضاً، مثل:

أ ـ تخفيض الإنتاج.

ب ـ هدر أوقات العمل.

ج ـ خسارة في القوى العاملة.

د ـ انحسار الرقعة الجغرافية الزراعية.

هـ ـ تراجع التنمية.

و ـ اضطراب العمل.

٥ـ انتشار المخدرات في (١٧٠) بلداً وإقليماً، حسب ما أظهرت تقارير الأمم المتحدة والجهات الرسمية المهتمة بهذا الشأن.

٦ـ التأثير المباشر أو غير المباشر في حدوث تحديات كبيرة وكثيرة للوجود الإنساني نتيجة تعاطي المخدرات، حيث لا تبقى حصانة للمرأة من التعرض للضغوط أو الاغتصاب أو الابتزاز، كما لا تبقى صيانة

للمقدسات إذا ما تمت المقايضة على ذلك من أجل حصول المتعاطي للجرعة، ليعلن استعداده الصريح للتنازل عن المبادئ والمفاهيم الإسلامية، بل حتى الإنسانية، كما لا تضمن حماية الأرواح فضلاً عن الأموال.

المحور الثاني: الضرورة

والمقصود من الضرورة هي أن تستدعي الحالة الإنسانية مداخلة ما، لمنع التردي الحاصل للحالة الصحية للفرد.

وهذا ما يتطلب التشخيص الدقيق الذي يحصل نتيجة التأمل في الحالة، ودراسة الإيجابيات والسلبيات والموازنة بينهما، حتى يتم تعيين أن الحالة ضرورية أم لا.

لذا فالمطلوب - بل اللازم - على ذوي التخصص في مجال التخدير الطبي التثبت قبل تعيين الجرعة، إذ قد لا تتطلب استعمال مخدر أصلاً، أو بنسبة أقل، أو جرعة أخف. فهم مدعوون إلى عدم التسرع في اتخاذ القرار، بل هم ملزمون - أخلاقياً - بعدم التكبر على من يصحح لهم خطأ وقعوا فيه أو يمكن حصوله نتيجة الاستعجال أو قلة الخبرة، فإن المسوغ للاستعمال أن يكون وصف الجرعة أو النوع بعد تكوّن قناعة لا فردية ارتجالية، فلابد من الالتزام بأخلاقيات المهنة والعمل، وأن لا تأخذنا - جميعاً - في الحق لومة لائم، بل إن الحق أحق أن يتبع، والله أحق أن يخشى، وإننا لو عقدنا مقارنة بين هذا التقييم الإسلامي للإنسان، إذ خلق الله تعالى له العقل، واهتم المشرع بحفظ حياته، وما نشاهده في عالمنا الحاضر من الإهمال وعدم التقدير، كما هو الحال في مقدار ما تهتم به بعض الجمعيات من حيوانات تكاد تنقرض أو نحو ذلك، لوجدنا أن المقارنة غير متعادلة الطرفين، وهذا ما يؤسف له حقاً، لأنه بمقدار ما تقدمت عجلة الحياة، فقد تدنت درجة الرعاية للإنسان، وصار يقتل جزافاً ويستباح بغير حساب، مع أن الله تعالى كرّمه.

وفي الختام لابد من الإشارة إلى أن استعمال المخدرات في غير الضرورة الطبية التي يحددها الخبير الحاذق حرام، وأيضاً حرام الإعانة على ذلك بأشكالها كافة، من تهيئة المادة أو المال أو المكان الذي ينحصر فيه التعاطي، وسائر ما يروج لذلك.

كما أن المخدرات تشترك مع الخمر في الإسكار، فما كان مشتركاً في العلة فيشترك في الحكم، وأيضاً لابد من التنبيه إلى أن المخدرات تشمل مواد واستخدامات علمية أو عادية غير محظورة أو غير خطرة، وهذه غير مشمولة بالحكم طبعاً ■

المخدرات..
من وجهة نظر الشرع والطب

المخدرات والإدمان

د. حسين عبد الكاظم عبد الحسين ●
رئيس فرع الأدوية/ كلية الصيدلة/ جامعة الكوفة

ينابيع

إن موضوع الإدمان والمخدرات هو من الأمراض الاجتماعية والصحية الخطيرة، والذي يعكس مرضاً أشد خطورة من الإدمان، وهو سبب الإدمان، هو انهيار القيم الدينية والإنسانية وفقدان التربية الأخلاقية وسيادة التداعيات الفردية والأسرية والاجتماعية.

وقبل البدء، لابد من الوقوف على تحديد مفهوم الإدمان والمخدرات والتركيز بما طرأ على هذه التعاريف من تغيير، ولماذا؟

الإدمان هو حالة مرضية تمتاز بصفتين أساسيتين تدوران حول مجموعة من الأدوية والكيمياويات التي تحدث تغييراً نفسياً للشعور بالسعادة الوهمية أو الهروب من الواقع المؤلم.

الصفة الأولى: الاعتماد

هو الشعور القسري للمريض الذي يجبره على البحث عن الدواء المشار إليه. وهذا الشعور القسري يكون على نوعين:

الاعتماد النفسي

وهو الاعتماد المتمثل بالرغبة في إشباع الحاجة العاطفية أو النفسية. وهو يعتبر حالة أخف من حيث القسر من الاعتماد الجسماني.

الاعتماد الجسماني

وهو الاعتماد المتمثل بظهور الأعراض الجسمية والعلامات عند سحب الدواء المورث للاعتماد، وهو حالة شديدة من الاعتماد، لأن المريض لا يستطيع معه ترك الدواء ومقاومة الأعراض الجسمية الناجمة من ترك الدواء، مثل الخفقان، وضيق النفس، والهياج العصبي، وعدم الاستقرار، والاكتئاب، والتعرق، والآلام في البطن والعضلات، وغيرها.

الصفة الثانية: الاعتياد

وهو الحاجة إلى مضاعفة الجرعة الدوائية للحصول على نفس الأثر الدوائي الذي كان ينتجه الدواء في الوقت السابق، وإن كل الأدوية النفسية تستطيع أن تحدث هذا الاعتياد الذي هو الأصل الخلوي لحدوث الاعتماد، وبالتالي الإدمان، ولكن بنسب مختلفة.

أما الأدوية التي تستطيع أن تورّث الإدمان، فقد تم النظر في تغييرها في السنوات العشرين الأخيرة، وذلك لظهور أنواع ومجاميع عديدة من الأدوية التي تحدث هذه الآثار الدوائية وتعطي نتائج أشد فتكاً حتى من الأفيونات المخدرة، مما أصبح كثيراً ما يقال: (الأدوية المُساء استعمالها) بدلاً من المخدرات.

وتضم هذه الأدوية التي تورث الإدمان ثماني مجاميع أساسية:

١- الأفيونات: المستخرجة من الحشيشة والخشخاش، وكذلك الأفيونات الصناعية مثل البثدين، والكودائين، والفنتينيل، فضلاً عن المورفين والبابافيرين والهروين.

٢- المنومات: وتتمثل بصورة أساسية بمشتقات الباربجيوريد أسيد، مثل الفينوباربيتون والباربجيورات وتتقاطع مع تأثيرات البنزوديازين (مثل الفاليوم) بزيادة الأثر الدوائي والإدمان.

٣- الكحول: وهو كحول الأثيل الذي يورث حالة فريدة من نوعها من بين كل الأدوية المساء استعمالها، وذلك بإحداث إنطلاقة الغرائز، وفصل الإنسان عن الواقع الإنساني والاجتماعي، مما يترافق كثيراً مع حالات إجرامية عديدة، كسفاح ذي القربى، والقتل، والمواقعات الجنسية المنحرفة، وانعدام القيم الإنسانية في آلة الدماغ.

هذا فضلاً عن حالة الإدمان الشديدة

التي تحدث، فضلاً عن الآثار الجسمية المرضية القاتلة، مثل أمراض جهاز القلب والدوران وتشمع الكبد، والجنوح إلى تعاطي المخدرات.

٤- المنشطات: وتضم مجموعة من الأدوية التي تزيد من الشعور بالحدّة الذهنية، والنشاط الجسماني، ورفع المزاج، مثل الأمفيتامينات والكوكائين. ولكن حالة الإدمان في الكوكائين تختلف عن الأمفيتامينات، مما قد يعزل في مجموعة خامسة.

٥- الكوكائين.

٦- المهلوسات: مثل السايلوسايبين والقنب والمرجوانا، أيضاً تحدث حالة من العزلة البيئية ورفع المزاج.

٧- التبغ: ويضم ما يقارب أربعة آلاف مركّب، الكثير منها يورث الإدمان، مثل النيكوتين.

٨- السيترويدات: وقد تم ضمها في السنتين الأخيرتين، لأنها تدخل في التعريف أيضاً، وتحدث حالات نفسية واعتماداً. كما أن هناك إقبالاً غير طبيعي وكثير عليها، مثل طلب التغييرات الجمالية للجلد، وكذلك بناء الأجسام، مثل الأنابولين.

متعلقات الإدمان.. الأساليب والنتائج

إن موضوع الإدمان لا يمكن تصوره عائماً بدون أسبابه ونتائجه، بل هو حالة وسط بين مرضين، مرض يسبب الإدمان، ومرض ينتج عن الإدمان. فأما مسببات الإدمان، فهي على صنفين.

وعلى فرض أن الإدمان هو شجرة سيئة، فإن مسببات تلك الشجرة تكون على صنفين، صنف الأرضية التي تنبت فيها تلك الشجرة، وصنف البذور التي تنمو إلى تلك الشجرة. فأما الأرضية التي بدونها لا تنبت تداعيات الإدمان، فهي انعدام منظومة القيم الأخلاقية للفرد على المستوى الوراثي والتربوي، مما ينعكس على الأسرة والمجتمع. وهذه المنظومة الأخلاقية هي في الحقيقة الرياضية الدماغية التي تثبت ما يسمى بآلية الدفاع التي تتواجد في قشرة المجتمع، وبالخصوص في الفص ما قبل الجبهوي الذي يوجد في أعلى الحاجب الأيسر لدى الأشخاص الذين يستعملون اليد اليمنى، حيث تتشكل التشجرات العصبية للخلايا بطريقة هندسية تكون معها وظيفة تلك الأعصاب مثالية من حيث تكامل الإيعاز العصبي الناتج من الشعورات الغرائزية، مثل الحزن والألم والرغبة في إشباع شهوة معينة، فترسل تلك الأعصاب إيعازات تكاملية تعمل على كبح جماح الشعور الغرائزي وتهذيبه، والرد على الموقف المتحدي

المؤلم بصورة عقلانية لائقة، وتمنع هيمنة الأسى والحزن على الإنسان التي تؤدي إلى حالة إفراط عصبي، وحرق المحتوى الدهني للخلايا، ونشوء الأمراض العصبية والأيضية، بل وتستعيض وسيلة الدفاع الدماغي المثالي هذا الحال المضطرب بحال المصابرة والشعور بالثقة والسعادة الداخلية من جراء التعرض إلى البلايا، وذلك بإطلاق الأفيونات الداخلية والأسيتايل كولينات التي تورث الشعور الداخلي بالسعادة والثقة والحبور. وهذه هي الوسيلة الذاتية للهروب من الألم إلى السعادة في الإنسان، هذه الخاصية الغرائزية التي تتبادر دائماً في أحاسيس الإنسان.

ولا يبقى في باب مسببات الإدمان إلا الإشارة التشبيهية إلى بذرات الإدمان، وهي الأدوية المساء استعمالها، ومن ضمنها وأهمها المخدرات والكحولات والمنوّمات، حيث إن هذه الأدوية تورث تغييراً نفسياً، وفي الوقت نفسه تؤدي إلى ظاهرة الاعتياد التي تؤدي إلى الاعتماد، وبالتالي الإدمان.

أما ثمار الإدمان، فهي النتك الصحي الفردي والجرائم الاجتماعية، والتداعيات الاقتصادية والأخلاقية الاجتماعية، بل وحتى السياسية، حيث أن نسبة الإجرام تزداد بشكل غير مسيطر عليه، خصوصاً الأصناف الدوائية المذكورة أعلاه، ومنها باهظ الثمن، مما يؤدي إلى تشكل عصابات المافيا التي تشكل خطراً أمنياً واقتصادياً وسياسياً في صياغة قرار الحكومة إذا ما تفشت تلك العصابة فيها، كما هو الحال في بعض الأنظمة الفردية الحاكمة. هذا فضلاً عن التداعيات الصحية للفرد، والمتمثلة بالآثار النفسية وانعدام وسيلة الدفاع النفسي الفردي والآثار الدوائية، مثل أعراض وعلامات الانسحاب والأضرار الجانبية، مثل تشمع الكبد الذي يسببه الكحول، ونشوب الأمراض الجنسية الخطيرة، والأمراض الجنسية الانتقالية، حيث أن الأدوية المذكورة أعلاه تؤدي إلى تحفيز واهم للجنس يعقبه إحباط جنسي نتيجة للدواء ونتيجة للأمراض الجنسية الانتقالية، مثل الأيدز والسيلان والزهري، وكذلك التهاب الكبد الفايروسي الناجم عن تعاطي زرق الأبر الوريدية للمخدرات.

توصيات البحث

إن توصيات البحث على المستوى العلمي تصب بصورة رئيسية في محور اتهام المجتمع وتبرئة الفرد (الضحية).

وهي تتفق مع الحكمة التي تقول: الوقاية خير من العلاج.

وتستند آلية الخطة المرصودة لعلاج الإدمان إلى معالجة السبب، وهو تداعي المنظومة القيمية الاجتماعية مع مراقبة

الأفراد الضحايا على أنهم بؤر مستقبلية ممكن أن تتفجر عن أسباب أخرى للإدمان.

فمن شروط خطة العمل ما يلي:

١- أن يكون العمل للتصدي للإدمان والمخدرات يتسم بصفة التعاونية بين القطاع الصحي والشرعي والاجتماعي والقضائي والأمني والاقتصادي. على اعتبار أن الفرد والمجتمع يعاني على مستوى فقدان الهوية الإنسانية والصحية والأمنية والاقتصادية.

٢- أن يؤخذ بنظر الاهتمام كون الإدمان وسط بين أسباب ونتائج، فإذا ما عولجت الأسباب، عولج الوسط والنتيجة، فينبغي رصد الاهتمام بصورة أكبر إلى إحياء وسيلة الدفاع الدماغي الذاتية، وذلك بتفعيل دور الأخلاق والأسوة والقدوة الدينية، مثل الأنبياء وأهل البيت عليهم السلام والصالحين من الناس، والسعي في سيادة الأخلاق الإنسانية والتراحم الذي أتى به هؤلاء، والثمار الطيبة الذين وعدوا بجنيها إذا ما التزم المجتمع بالمقدمات الأخلاقية واتباع السنن الإلهية وتعاليم القرآن الكريم، وذلك ينبغي أن يكون مشروعاً مدعوماً على مستوى الدستور في منهج التدريس، واللجان الاجتماعية، ومدعوماً على مستوى التنفيذ الشرعي والحكومي والقضائي.

التوصيات

١- إنشاء مراكز مراقبة لحالات الإدمان، واهتمام اللجان المشتركة المذكورة بصورة فعالة بزيارة تلك العوائل التي تعاني من هذه الحالة المرضية والوقوف على أسبابها العوزية أو الترفية، وتقديم البديل الأطيب الصحي والشرعي والاجتماعي.

٢- التشدد في فرض الرقابة الدوائية على الأدوية التي دخلت حديثاً في تعريف الإدمان، مثل الكحولات والمنومات والسيترويدات وعدم صرفها بصورة حرة.

٣- تعزيز الرقابة الأمنية الحدودية وإخضاعها إلى رقابة اللجان المشتركة، كي لا يتم تهريب الثروة المالية والدوائية للمخدرات بالفساد الإداري بعد ضبط المهربين ■

لقاء مع شاعر أهل البيت عليهم السلام

الدكتور عباس الترجمان

أجرى اللقاء في مدينة طهران
أحمد الكعبي الطويرجاوي •

تمهيد

المنبر الحسيني مصباح الرسالة السماوية التي أرسى قواعدها نبينا الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو الإشعاع الفكري الوهاج الذي نفذ إلى بصر وبصيرة الورى، فهو الرسالة المقدسة التي حملها رجال أشداء على الكفر والنفاق والظلم والطغيان والجور والإلحاد، أن لقدسية المنبر حرمه تميز بصونها رجال أكفاء لإتمام النهج المنبري، انعكس على أدق تفاصيل الحياة، فهما جزءان التصقا بكيان ونبض وعقل ودم رجال شرفاء.

وحمل هؤلاء الرجال سيف الحق والعدل في الخطابة والبلاغة والشعر والأدب والكتابة والتأليف والإنشاد وتعدى ذلك إلى التفاني في سبيل الخدمة المخلصة التي يقدمونها بين يدي سيدهم المولى الإمام الحسين عليه السلام.

ومن بين أعلام المنبر الحسيني يبرز الأستاذ الشاعر الأديب الدكتور عباس بن علي الترجمان، ارتأينا في هذا العدد أن نلتقي به ليحدثنا عن تجربته الأدبية ورحلته المنبرية وحياته العلمية فكان لنا معه هذا اللقاء:

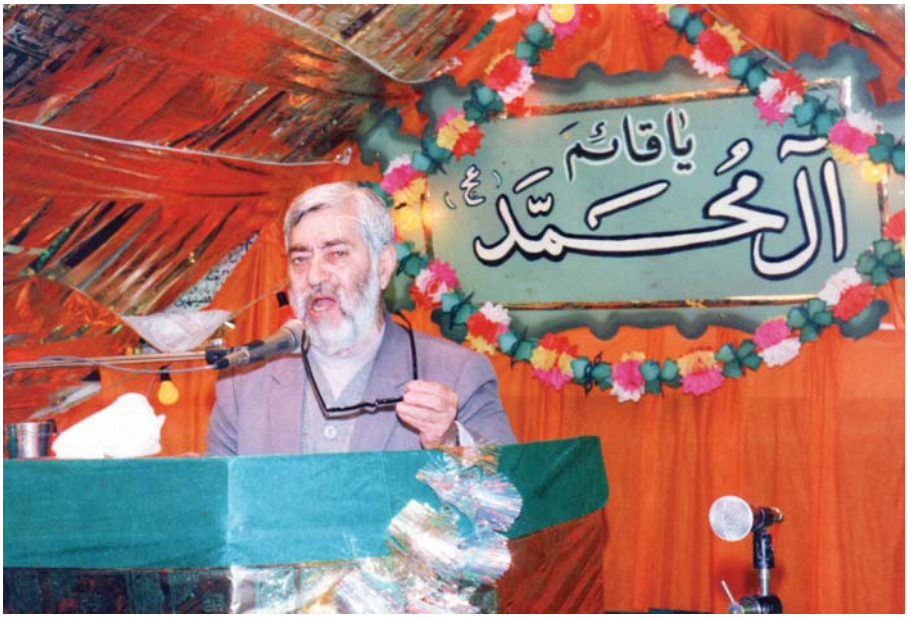

❐ نرحب أجمل ترحيب بالأستاذ خادم الحسين عليه السلام الدكتور الترجمان ونرجو منه بداية الحديث أن يحدثنا عن الولادة والنشأة..

ولدت في مدينة كربلاء المقدسة يوم الخميس الثالث من جمادي الأولى في عام (١٣٤٤هـ) الموافق للعام (١٩٢٥م)، وبعد أربعين يوماً من ولادتي عاد والدي إلى النجف الأشرف، المدينة المحببة إلى نفس والدي ونشأت في شعر وأدب وفي مدينة علم وثقافة وقد كان والدي شاعراً عارفاً له موسوعة شعرية كبيرة في أهل البيت عليهم السلام ودواوين باللغات العربية والفارسية والتركية والهندية تربو على خمسمائة ألف بيت، وكما كان يجيد اللغة الكردية والفرنسية وجاءت شهرتنا نحن أبناؤه بلقب (الترجمان) كما أن أخي عبد الأمير كان أديباً وشاعراً وفناناً.

❐ هل تتفضل علينا ببيان نشأتك الدراسية والأدبية؟

بدأت دراستي الأولى منذ نعومة أظفاري عند الشيخ موسى الدبستاني وكان أديباً ألمعياً وشاعراً باللغة العربية والفارسية وختمت القرآن على يده وأقيم احتفال بمناسبة ختم القرآن وختاني كما هي العادة المتبعة في مدينة النجف الأشرف، وبعد أن أغلقت الحكومة العراقية المكاتب الأهلية للتعليم دخلت المدرسة الابتدائية وتخرجت منها بنجاح وتفوق ثم بعد سنتين دخلت ثانوية الشرافة في بغداد ولصعوبة الحالة الاقتصادية وخشية والدي عليّ من الانحراف في بغداد عدت إلى النجف وتركت الدراسة، فأدخلني والدي الدراسة الحوزوية،

ولكن حالة أسرتي الاقتصادية لم تيسر لي متطلبات الدراسة فتركت الدراسة الحوزوية والتجأت إلى مزاولة المهن الحرفية، مثل صبغ الأحذية والتجارة والخياطة ثم الصياغة حيث كنت أتفنن في النقش على الذهب.

وخاتمة المطاف ارتأيت أن أمارس هوايتي منذ الصغر وهي فن الخط والرسم وجعلتها حرفة لي سنين طويلة.

❐ متى ارتقيت المنبر الحسيني ولمن قرأت من الشعراء؟

تشرفت بارتقاء المنبر الحسيني قبل بلوغي العاشرة من عمري وقرأت كثيراً من القصائد للشعراء الكبار أمثال المرحوم عبد الله الروازق والشيخ ياسين الكوفي والشيخ إبراهيم أبو شبع والشيخ عبد الأمير المرشد في مدح أهل البيت عليهم السلام وعند سماع الجمهور صوتي أعجبوا كثيراً بقراءتي ووجهت لي دعوات للقراءة في كافة أنحاء العراق منها الناصرية والرجيبة والسماوة وكربلاء والكاظمية والمحمودية والبصرة وبعقوبة والهويدر وسامراء وبلد بالإضافة إلى مدينتي الحبيبة وأمي التي ربتني وغذتني ورعتني وهذبتني النجف الأشرف على مشرفها ألف سلام، كما وقرأت في إيران في مدن طهران ومشهد والري وقم وأصفهان ونجف آباد وشيراز وخرمشهر وفي بعض الدول العربية مثل سوريا ومصر ولبنان، ولا أزال في هذا الحال وتردي صحتي أتشرف بخدمة أهل البيت عليهم السلام من هذا الطريق والحمد لله على التوفيق.

❐ متى بدأت بنظم الشعر وبمن تأثرت من الشعراء؟

كنت أقرض الشعر منذ طفولتي ولم أكن أتظاهر بذلك لأن اسمي لا يضاهي فطاحل الشعر في ذلك الوقت وكنت أنسب شعري إلى أستاذي الشاعر إبراهيم الخليل أبو شبع الذي كنت أعتبره قدوتي والمدرسة التي أستتير بها، وعلى أثر نزاع أدبي بين بعض الشعراء أنكروا عليّ نظم الشعر مما أثار أستاذي المرحوم أبو شبع الذي كان حاضراً فقال كلمته المشهودة بحده: (عباس الترجمان أشعر من عبود غفلة) وكانت هذه الكلمات مثار حفيظة الشعراء وجدلهم، اضطررت بعدها إلى أن أنسب شعري لنفسي ونظمت الشعر الفصيح إضافة إلى الشعر العامي وكذلك الشعر باللغة الفارسية.

❐ متى أكملت دراستك الثانية والجامعية؟

بعد ثورة ١٤ تموز (١٩٥٨م) واصلت الدراسة الثانوية المسائية وبعد تخرجي منها ـ الفرع الأدبي ـ دخلت كلية الفقه في النجف الأشرف وحصلت على شهادة البكالوريوس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية بدرجة جيد جداً وتقدمت بطلب للتسجيل في معهد الدراسات العليا في بغداد فلم يوافق على طلبي لأمور سياسية.

ثم استدعتني جمعية منتدى النشر للتدريس في مدارسها الثانوية.

❑ متى تصديت في نشاطك إلى النظام البعثي البائد؟

نتيجة لنشاطي وتصلبي في الدين والدفاع عن الإسلام القويم وإحياء أمر أهل البيت عليهم السلام وفضح مخازي البعثيين استدعيت مراراً إلى دوائر الأمن وأودعت السجن بتهمة التأليب على الحكومة نتيجة مواقفي الإصلاحية الإسلامية وأشعاري الاجتماعية السياسية التي كنت أندد فيها بالطغاة المستبدين والظالمين حتى عرفت بالشاعر الإسلامي كما كان لي شرف السبق في تأسيس موكب العزاء بمسيره إلى سامراء بمناسبة استشهاد الإمام علي الهادي عليه السلام تلقى فيه الخطب والقصائد ليلة الثالث من رجب ونهاره وكان لهذا الموكب الأثر البالغ في النفوس وذلك عام (١٣٦٧هـ) واستمر الموكب حتى إخراجي من العراق عام (١٣٩١هـ).

❑ نرجو من الدكتور الترجمان بيان نشاطاته في جمهورية إيران الإسلامية؟

بعد قيامي بالنشاطات الإصلاحية والمنبرية وبعد تعرضي لمضايقات النظام البائد صدر قرار خاص من وزارة الداخلية بإخراجي من العراق وتم ذلك يوم ٢٦ شوال (١٣٩١هـ)، وعند دخولي الأراضي الإيرانية أعتقلت في مخيم (نصر آباد) ومنه إلى مخيم (جيرقت) وبعد مرور ثلاثة أشهر خرجت من الاعتقال وسكنت مدينة الري لمدة ستة أشهر بعدها انتقلت إلى طهران. وتقدمت بطلب إكمال دراسة الماجستير في كلية الإلهيات والمعارف الإسلامية وأكملت الدراسة عام (١٩٧٧م) وحصلت على شهادة الماجستير، وبعدها سافرت إلى القاهرة للانضمام إلى كلية دار العلوم بجامعة القاهرة للحصول على شهادة الدكتوراه وبعد عناء وافق مجلس الكلية ثم مجلس اللغة العربية على قبولي بعد أن تبنى الأستاذ علي النجدي ناصف الإشراف على رسالتي الموسومة (النحو والصرف والعروض) وهي دراسة وتحقيق كتاب (المقتصد) لعبد القاهر الجرجاني، وهو شرح التكملة لأبي علي الفارسي المخطوط، وحصلت على المخطوط من طهران واسطنبول ودمشق والقاهرة ومارست التحقيق والدراسة وأتممتها وما آن الأوان لأتقدم للمناقشة حتى أخرجتني السلطات المصرية إلى قبرص وبعدها سافرت إلى دمشق وبقيت خمسين يوماً لغرض مراجعة السفارة المصرية دون جدوى

لأن العلاقات المصرية الإيرانية ساءت جداً، وعلى كل حال عدت إلى طهران بخفي حنين.

وقدمت شكايتي إلى وزارة الثقافة والتعليم العالي آنذاك، وبعد المعاناة طوال سنتين وافقت الوزارة بتصريح خاص وحولت إضبارتي إلى جامعة طهران لمناقشة الرسالة وحزت على شهادة الدكتوراه في النحو والصرف والعروض والحمد لله.

بعدها مارست التدريس في جامعات طهران ولحد الآن.

❐ ما هي أهم مؤلفات الدكتور الترجمان؟

مؤلفاتي على ثلاثة أقسام:

أ- التأليف: باللغتين العربية والفارسية، نثراً.

ب - الترجمة: باللغتين العربية والفارسية، نثراً وشعراً.

ج - الشعر: باللغة العربية وهو على ضربين اللغة الفصحى واللهجة العراقية الدارجة ثم الشعر باللغة الفارسية.

وهي تربو على خمسين كتاباً وهذا من فضل ربي وله الحمد.

❐ نحن نرى الدكتور الترجمان متعدد المواهب بالفن والشعر والخط والرسم والتأليف والخطابة والإنشاد، فأين يجد نفسه من تلك المواهب؟

إني أرى نفسي بفخر وشرف أقل خدام أهل البيت عليهم السلام وكل أمنياتي أن أجاور سيدي ومولاي أمير المؤمنين عليه السلام في الدنيا والآخرة وما ذلك على الله بعزيز.

في الختام نقدم شكرنا وتقديرنا ودعاءنا إلى الدكتور الترجمان على هذا اللقاء المثمر■

الدكتور نجم الدين محمد ثابت هوارمي

ينابيع

ولدت بمدينة السليمانية عام ١٩٥٨م في العراق، ونشأت في أوساط عائلة متدينة تعتنق المذهب الشافعي.. وأنهيت دراستي الجامعية وحصلت على شهادة الدكتوراه في طب الأسنان..

بداية: جاءني في عيادتي أحد الأخوة لعلاج أسنانه وكان من الظاهر أنه متدين لأني عندما كنت أراه يتألم كان يقول هامساً: يا زهراء، يا علي.. مما دعاني لسؤاله.. من أين أنت؟ فأجابني: من بغداد. فسألته عن مذهبه فقال: إني شيعي..

في البداية لم أرتح له عندما سمعت أنه شيعي، ولكن في موعد المعالجة الثاني والثالث وبعد تجاذب أطراف الحديث معه وجدت أنه كثير الثقافة.. وبعد هذه اللقاءات التي جرت في العيادة حصلت بيننا علاقة صداقة ومودة، فأخذنا نتزاور ونتحدث في شتى المواضيع ومنها موضوع الدين الإسلامي والفرق التي تشعبت باسمه فيما بعد.

يقول الدكتور نجم الدين عن نقطة تحوله: وجدته يقول أشياء لم أعرفها في منطقتي ومجتمعي من قبل، ورأيت أنها معقولة مما دعاني إلى أن أطلب منه كتباً تتناول هذه المواضيع فجاءني بكتب الشهيد مطهري وكذلك بكتب الشهيد الصدر فوجدت في نفسي الشوق إلى القراءة عن حقيقة هذا المذهب.. فجاءني بكتاب المراجعات وهالني ما قرأته من تنازل شيخ الأزهر الشيخ سليم البشري وتشيعه، وقوة وسيطرة السيد شرف الدين ومعلوماته التي كان يأتي بها من كتب السنة وقرأت كل ما كان يقوله السيد شرف الدين وبحثت عنه تحقيقاً وتدقيقاً في كتب السنة فوجدته صحيحاً.

وهكذا بدت الحيرة على مجمل وضعي، فما ورثته وقدسته عبر سنين اهتز في هذه الفترة لأنه قائم على أسس واهية في حين أرى في الجانب الآخر صدق المقال وقوة الاستدلال.. ومن أين؟! من كتب السنة أنفسهم؟! وهنا توجهت إلى الله تعالى أن يهديني إلى الصواب ويسددني في مسعاي لأني طالب حقيقة..

وفي إحدى الليالي رأيت في المنام كأني في البيت الحرام والناس يقولون: إن رسول الله هو الذي يؤم المصلين ويقول: صلوا وأسبلوا أيديكم فالتكتف عليكم حرام.. فنهضت فزعاً.. وبعد تفكير طويل سألت الله تعالى أن يهديني لطريقه الصحيح.. ثم ذهبت إلى صديقي الشيعي وطلبت منه كتباً أخرى لأطالعها فأعارني كتاب ثم اهتديت..

فوجدت أن مؤلف هذا الكتاب سنياً كيف تحول إلى شيعي، وكيف ينقل هذه التجربة العقائدية إلى أخوانه مما دعاني إلى اعتناق مذهب أهل البيت عليهم السلام.. وأعلن تشيعي وأرجع إلى مدينتي السليمانية.. وقد كان ما جرى عليّ في مدينة أربيل عام ١٩٩٥م في شمال العراق ■

من (المتحولون) بتصرف

إشارات قرآنية
في نشوء وتمدد الكون

• د. عامر عمران الخفاجي
كلية التربية/ جامعة بابل

• د. فيصل علي البصام
كلية العلوم/ جامعة بابل

تمهيد

ينابيع

في الوقت الذي أخذت العلوم والتكنولوجيا تخطو خطوات واسعة وسريعة نحو التقدم والارتقاء ولاسيما في النصف الثاني من القرن الماضي، كان نصيب علوم الفضاء والفلك الحصة الأكبر في التقدم موازنة ببقية المعارف سواء أكان ذلك من الناحية النظرية أم من الناحية العملية، فبعد أن كان علم الفلك محصوراً في دراسة الكون بواسطة الأجهزة والمراصد الأرضية، شرع ببناء وتصنيع الأجهزة الفضائية لدراسة الأجرام السماوية من خارج الغلاف الجوي الأرضي، ليتضمن الأطوال الموجية كافة، كما استخدم الحاسوب لالتقاط الصور من الفضاء الخارجي، ومن البديهي أن يعالج علم الفلك الكثير من الأسئلة التي حيرت ومازالت تشغل الإنسان ومنها كيفية بدء الكون.

لقد تفتحت الذهنية الإسلامية، فانبرت طلائعها لاحتضان الجهد العلمي المتوجه نحو الكتاب الكريم، فامتدت بدراسات فنية عصرية ميسرة بذلك الفهم

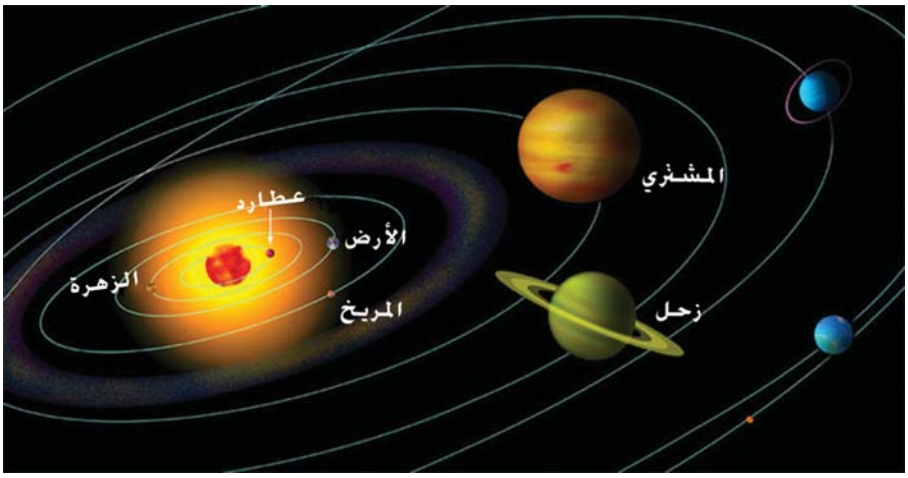

القرآني بعيداً عن الجدل الفلسفي والنزاع التقليدي، ووجدنا أن هذه الدراسات مازالت مفتقرة إلى كشف العديد من الظواهر القرآنية في ضوء المفهوم العلمي الحديث، إذ أفصحت آياته عن مشيئته في الكون وظواهره، وهذا يفسر ميل الدراسات العلمية والفضائية وما فيها من غزارة نحو هذا الجانب، لذلك تطلعنا إلى إصدار سلسلة قرآنية تعزز مجدنا الخالد وتتيح المجال لباحثينا ليتوصلوا إلى حقائق التصور العلمي والإنساني من آياته سبحانه.

مقدمة

تكشف مسألة الخلق قدرة القادر الحكيم وإن تفاوتت في الكبر والنوع، دليل ذلك ما جاء في دراسات علم الفلك الراديوي والجيو فيزياء، إذ أثبتت أن خلق الكون أكبر من خلق الناس لما فيه من الأسرار العلمية في جريان أجزائه، وسعة أبعاده، وكبر مجراته قال تعالى: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)[غافر:٥٧]، وقوله أيضاً: (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا)[النازعات:٢٧].

لقد حاول الإنسان معرفة كيفية نشوء الكون، ولكنه لازال في دور الحدس والتخمين، لذلك نجد قلة من يتصدى من علماء العصر الحاضر إلى وضع نظرية مبنية على أسس علمية من شأنها أن توضح نشوء الكون بأجمعه، وأن ما وضع من نظريات ما يزال عرضة للتعديل في تفسير الحوادث والظواهر الكونية المتزامنة معها وتمدد الكون إحدى تلك الظواهر التي ما تزال مستمرة الحدوث.

إن النظام الكوني ليس مجهولاً تماماً، وحقائق نشوئه وتمدده جعلت عدداً غير قليل من العلماء، لا يعرف بدقة كيف ابتدأ خلق العالم الكوني، لأن المدبر الأعلى لم يشرك معه أحداً في خلق الكون ولا خلق غيره، قال تعالى: (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ)[الكهف:٥١]، ولمح سبحانه في قرآنه المجيد إلى كيفية

نشوء الكون، وما ورد من نظريات تتوافق لحد ما مع الكلمات القرآنية في هذا الجانب والله الموفق.

قال تعالى: (...وهي دخان) مشيراً إلى الحالة الغازية، وقوله: (وكان عرشه على الماء...) مشيراً إلى القدرة الإلهية في الحالة السائلة، وقوله: (والأرض بعد ذلك دحاها) مشيراً إلى الحالة الصلبة.. أما إشارة القرآن إلى نظرية الانفجار الهائل في الكون وتكون المجرات والنجوم في قوله: (كانتا رتقاً ففتقناهما...).

المبحث الأول
نظريات نشوء الكون

إن ابتداء خلق الكون وكيفية تطوره وحركته وزمن تشكيل السدم كل ذلك لم يزل غامضاً بعض الشيء، وكل ما دار حوله لا يعدو أن يكون تصورات ونظريات، والنظرية في العلوم الطبيعية ما هي إلا فرض يرجح العلماء صحته بتتابع الوقائع وزيادتها، ولكن ما يزال الاحتمال عندهم بنقص ما فرضوه لما يظهر من تفاوت بين الحقائق الموجودة فعلاً وما خرجوا به من نظريات، فإذا اكثرت الوقائع واستمرت في الزيادة عندهم البراهين والأدلة في صحة النظرية، تتحول في النهاية إلى قانون، لذلك نلاحظ أن هناك مفاهيم فلسفية عديدة تبحث في هذا العلم، كل منها يبحث ويفترض مبدأ معيناً، ومن هذه المفاهيم مثلاً مفهوم المبدأ الكوني (Cosmological Principle) الذي يفترض أن الكون متجانس (Homogeneous) ومتماثل الخواص الاتجاهية (Isotropic) وكذلك مفهوم المبدأ الكوني المتكامل (Perfect Cosmological Principle) أي متماثل الخواص الاتجاهية ومتجانس في المكان والزمان (لا يتغير مع الزمان)، وإن النظرية التي اتبعت المبدأ الأخير هي نظرية الخلق المستمر (Continuous Creation)، والتي تنص على أن الكون لا يملك لحظة ابتداء أو لحظة انتهاء، وسنعرض النظريات التي دأبت على كيفية نشوء الكون وتطوره:

١ـ كون أرسطو:

لقد وضع أرسطو (القرن الرابع ق.م) أول نظرية للكون والتي عاشت أفكارها ألفي سنة تقريباً، فاعتقد هو وأقرانه من فلاسفة الإغريق، أن الأرض ثابتة وتقع في مركز الكون ذي الأبعاد المحدودة، وأن الحركة بالنسبة له، على ثلاثة أنواع الحركة الخطية والدائرية والمختلطة، وبما أن الكون محدود الأبعاد، لذلك فإن الحركة الخطية لا

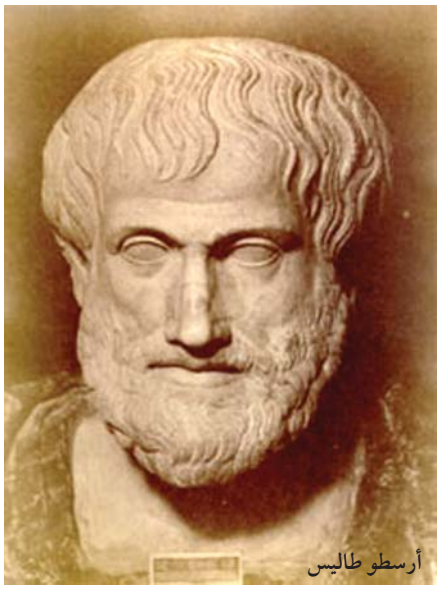
أرسطو طاليس

يمكنها الاستمرار إلى ما لا نهاية، لذلك فالحركة الدائرية هي الحركة الوحيدة التي ليس لها بداية أو نهاية، وهذا يفسر حركة النجوم والكواكب بمسارات دائرية، وتأخذ النجوم أشكالاً كروية وهي أزلية لأنها مصنوعة من مادة أزلية سميت بالأثير (Ether) تسمى اليوم بالمادة السوداء (Black Matter).

عدت نظرية أرسطو من أطول النظريات صموداً على الرغم من ضحالتها، ولم تبدأ بوادر انهيارها إلا في القرن السادس عشر على يد الفلكي (كوبرنيكوس)، فلقد استبدل الشمس بالأرض كمركز للكون، وفسر دوران النجوم الظاهري، بدوران الأرض حول محورها وبذلك قوضت مفاهيم (كوبرنيكوس) نظرية أرسطو.

إن رصد النجمة البراقة (المستعرة العظمى) عام (١٥٧٢م) من قبل الفلكي (تيكوبراهي) مكنته من البرهنة على أنها أبعد من القمر، كذلك برهن من رصده للمذنب الذي ظهر عام (١٥٧٧م) بأنه يدور حول الشمس بمدار بيضوي خارج مدار الزهرة، كما أن قوانين (كبلر) كانت ضربة قاضية لنظرية أرسطو، وباختراع المرقب الفلكي من قبل (غاليلو)، اكتشف الكلف الشمسي وأقمار المشتري الأربعة، واكتشف العالم (هالي) عام (١٧١٨م) حركة بعض النجوم البراقة وتبعه (هيرشل) عام (١٧٨٣م) فوجد أن الشمس تتحرك أيضاً وأن صغر النجوم ناجم عن بعدها السحيق، وبذلك تقوضت نظرية مركزية الشمس في الكون، وبقدوم نيوتن ووضعه لقانون الجاذبية التثاقلية، استند علم الفلك على

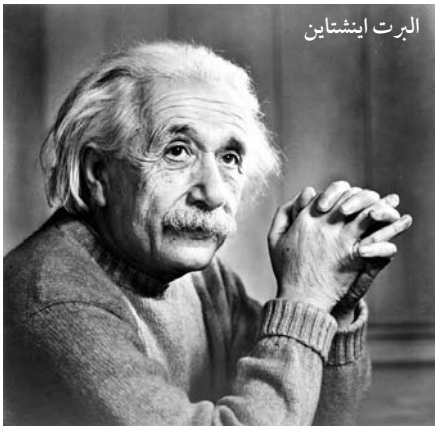
البرت اينشتاين

أسس سليمة.

٢ـ الكون في مفهوم النظرية النسبية (كون أينشتاين ـ دي سيتر):

لقد حاول أينشتاين عام (١٩١٦م) تطبيق النظرية النسبية العامة على الجاذبية والكون بافتراضه كوناً متماثل الخواص (Isotropic) مع الاتجاه (أي متساو في جميع الاتجاهات عند النظر إليه من نقطة واحدة) ومتجانس أي متشابه عند النظر إليه من عدة نقاط في نفس الوقت.

وبسبب تواجد المادة في الكون وبفرض تجانس توزيعها، فإن معادلات المجال أعطت كوناً متقلصاً بتأثير الجاذبية (Gravitation)، وتسمى نظريات الكون المعتمدة على النسبية بنظريات الكون المتطور التي بعض نماذجها يفترض كوناً متمدداً إلى ما لا نهاية مبتدئاً بانفجار أعظم (Bing Bang) الذي يؤدي إلى انخفاض كثافة المادة تدريجياً، وبعضها يفترض أن الكون متذبذب بتأثير الجاذبية التثاقلية التي تعيق التمدد. أما إذا حدث قبل وخلال لحظة الانفجار فلا يمكن معرفته، لأن

الكـون المسـتمر بالتمـدد هـو من بين نمـاذج الكون المتطور التـي تلقى قبولاً أكثر من الكـون المتذبذب أو الكون الذي ينكمش ليكون كتلة واحدة (مثل الثقب الأسود).

إن المجـرات تتباطـأ بالجاذبيـة التثاقلية بسـرعة تعتمد على كثافة المادة الكونيـة، وهـذا مـا يمكـن أن يحصل للكـون المتمـدد، فـإذا كانت سـرعة القـذف عند لحظة الانفجـار الأعظم أقل من سـرعة الإفلات للأرض (١١كم/ثا)، فـإن سـرعته تتباطـأ بالجاذبيـة، فتعـود المجـرات تتجمـع، ثم يتكـرر الانفجار وهكذا، أي إن سـرعة ابتعـاد المجرات البعيدة في الماضي أكبر من سرعتها في الحاضـر، وهذا ما يؤيده قانون (هابل) إذ أن مقلوبه يعطي أقصى عمر للكون.

لقـد تمكـن أينشـتاين مـن إيجـاد العلاقـة بيـن نصـف قطـر هـذا الكون المتناهـي وكثافـة المـادة المتوافـرة بالعلاقـة (نق $\propto \frac{٢}{\text{ث}}$). وعلـى الرغـم مـن هذا السـكون والاتـزان المتناهي، فقد حـدد كونه هذا بإطـار دائم وثابت تستطيع المجموعات الكونية أن تنمو في داخله وتتطور، لكـن كثيرين عارضوا كون أينشـتاين ـ دي سيتر، ومنهم (أرثر أدنكتن) في كتابه الكون المتمدد عام (١٩٣٢) قائـلاً بأن كليهمـا لا يمكن أن يصلحا كأنموذج للكون الحالي بسـبب القوتيـن الجاذبـة والطـاردة المركزيـة اللتيـن تعمـلان بالتضـاد، إذ تصبـح قوة الجذب مهمـة تقريباً في أعمـاق الكون بسـبب الأبعاد المذهلة للمجرات ما بينها ويزداد التوازن اختـلالاً ويتجه في طريق التمدد السريع.

٣ـ نظرية الحالة المستقرة (Steady-State Theory):

لقـد أعلن في كمبردج عام (١٩٤٨م) كل من (بوندي) و(جولد) و(هويل) نظرية تحل مشكلة الزمان قبل الانفجار، وذلك بافتراضهم أن الكون بالمعدل يظهر نفسه كمـا هو من قبل الراصد في أي جزء من الكون، وفي أي زمان منه، وهو يفسـر بـأن المجرات التـي تتباعد تخلـق محلها المـادة (على شـكل ذرات الهيدروجين) لكي تبقـى كثافة الكون ثابتة، ونظراً لبـطء عمليـة الخلـق بحيـث لا يمكـن التحسـس بهـا فـي المختبـر، فالكـون يظهر علـى حاله، ولكن المـادة تكفي للتعويـض عـن المـادة المفقـودة لغرض بنـاء مجرات جديـدة بدلاً مـن المجرات القديمـة التـي ابتعدت عنـا، لذلك فليس للكـون بداية أو نهاية فهـو أزلي، أي إنه يبقى كما هو عليـه الآن وكما عليه قبل بلايين السـنين (ويفسر ذلك بقاء الكون علـى حالـه، بـأن المـادة تخلـق لتعويض المادة التي تختفي بالتمدد، ولكن عملية الخلـق، ذرة بذرة بطيئة يمكن حسـابها من معـدل التمدد الكونـي، فوجد بأنها تقارب ذرة هيدروجين في كل سـم٣ في (١٥١٠ سـنة)!! وهي عمليـة بطيئة جداً) أي أن الكـون أزلـي تتحول فيه المـادة إلى طاقـة والطاقـة إلى مـادة بعمليـة متوازنة باستمرار.

إن جميـع الأدلـة العلميـة لا تؤيد هذه النظريـة، ممـا يجعـل نظريـة الانفجـار الأعظم والكـون المتطور أكثر قبولاً، أمـا مـاذا حصل قبـل الانفجـار؟ وما هو معنى الزمـان قبل الانفجار؟ فهي لازالت

أسئلة شائكة جداً تنتظر الحل.

٤ـ نظريــة الانفجار الأعظــم (كون لي ميتر المنفجر):

لقد وصف القسيس (لي ميتر) كونه إبّان النشوء، بأنه كان منكمشاً على نفسه انكماشاً كلياً تتكدس المادة فيه بعضها على بعض لتشكل نواته الأولى الضخمة المستقرة. وما لبثت لسبب من الأسباب أن انفجرت فتطايرت أشلاؤها في رحاب هذا الكون وأخذت في الانتشار والتباعد من أثر قوة هذا الانفجار المروع بسرع متفاوتة مع مسافاتها. وقد قدر (لي ميتر) تاريخ حدوث هذا الانفجار إلى قبل عشرة آلاف مليون سنة، كما صرح بأن الكون ماض في التمدد وسيستمر إلى ما لا نهاية.

ولاقت هذه النظرية استحساناً وقبولاً من معظم الأوساط العلمية نظراً لتوافق بعض وقائعها مع أحدث ما توصلت إليه الأرصاد الفلكية والبحوث العلمية، وقالوا ما أن يصل الكون إلى أقصى حدود التمدد، حتى تصل عنده القوة الطاردة حدها الأصغر، ثم تنعكس هذه الظاهرة في تلك النقطة فتتغلب عليها قوة الجذب فتبدأ عملية الانكماش فعلها المتواصل لتعود بالكون تدريجياً إلى حالته الأولى، ثم يعاد الانفجار مرة أخرى وهكذا تتناوب هذه الظاهرة. ولقد دأب فريق آخر للبحث في نظرية (لي ميتر) الانفجارية في الستينات كان أبرزهم (جورج كامو) أحد الباحثين في الفيزياء الذرية أجرى بعض التعديلات، إذ افترض هو والعالمان (تولمان) و(روبرت دك) بأن الكون ابتدأ بكرة نارية هائلة من الطاقة والمادة بكثافة غير محدودة وبدرجة حرارة تقارب (١٠١٠) كلفن، إذ ربما كانت جسيمات المادة تتكون من البروتونات والالكترونات والنيوترونات والنيوترينو، وبعد (١٠٠ ثانية) من الانفجار بردت إلى (٩١٠) كلفن، حيث بدأ بناء النويات الثقيلة، واستمرت عملية البناء لبضع ساعات، حيث انخفضت درجة الحرارة إلى (٨١٠) كلفن وتحول قرابة (٢٠٪) من المادة إلى هليوم وقليل من الديورتريوم (الهيدروجين الثقيل H^2_1 (أقل من ٠،٠٠١)).

إن الكمية المتولدة من الديوتريوم تعتمد على كثافة الكرة النارية، لأن الكثافة العالية تساعد على تحويله إلى الهليوم، أما الباقي فيتحول إلى هيدروجين، ولكن بعد مليون سنة حيث تصبح الكرة النارية تشبه باطن النجوم الحارة والمعتمة، ستبرد تدريجياً إلى (٣٠٠٠كلفن) والكثافة تقارب (١٠٠٠ذرة/سم٣) وتصبح الكرة النارية باردة وشفافة للإشعاعات بسبب تعادل ذرات الهيدروجين فتتسرب الإشعاعات إلى أجزاء الكون بحرية منفصلة عن المادة، وبعد بليون سنة تتكثف المادة إلى مجرات ونجوم.

إن كرة النار غير محددة في الفراغ فهي ليس لها موقع، وبسبب الزحزحة نحو الأحمر تتولد إشعاعات راديوية من جسم أسود بدرجة تقارب (٣) كلفن، وهذا الجزء الأسود يحيطنا من جميع الاتجاهات، واكتشف العالمان (آرنوبنزياس) و(روبرت ولسن) عام (١٩٦٥) هذه الإشعاعات على طول موجة (٧،٣٥سم) ولوحظ أنها قادمة من جميع

الاتجاهات وبكميات متماثلة الخواص الاتجاهية في الفضاء، سميت بالإشعاعات الخلفية الكونية (Cosmic Radiation Background) والإشعاعات الخلفية الأولية. ولقد تأيد ذلك بصورة مستقلة من دراسة امتصاص خطوات الطيف لهذه الإشعاعات من قبل جزيئات السيانوجين للأمواج (٢،٦سم). كذلك أثبت أن عدم اعتماد شدة الأشعة الكونية على الاتجاه يؤيد نظرية الكون المتطور.

إن اكتشاف إشعاع الخلفية الكونية جعل من نظرية الانفجار الأعظم أكثر ارتكازاً من ناحية تفسيرها لنشوء الكون كما دحرت نظرية الكون المستقر.

بعد حدوث الانفجار الكبير مباشرة كان الكون خليطاً من الإشعاعات ما بين درجة (١٠١٠-١٢١٠) كلفن، والفوتونات تمتص قبل رحيلها بعيداً لتكون المادة، وبعدها أخذ الكون يبرد تدريجياً إلى أن أصبحت درجة حرارته (٣٠٠٠) كلفن بعد مليون سنة تقريباً من لحظة الانفجار، ثم ارتبطت أيونات الهيدروجين مع الألكترونات فجأة لتكوين ذرات الهيدروجين، وخلال هذه المرحلة أصبح الكون أقل عتومة مما كان عليه في البداية، لأن الهيدروجين يمتاز باحتوائه على الطيف الخطي، ومن ثم أصبح الكون شفافاً لعدم حصول عمليتي الامتصاص الكلي والإشعاع الكلي من قبل المادة الكونية، عندئذ تركت بقايا الإشعاعات الأولية في الكون والمستمرة في انطلاقها خلال الفضاء إلى الأبد.

٥ـ نظرية الكون المادي ونقيضه:

ظهرت حديثاً نظرية أخرى معاكسة تماماً للنظرية الانفجارية ونظرية الكون الثابت بل ولكل النظريات الكونية الموضوعة وقد بحثها وحققها الباحث الألماني (ديراك) عام (١٩٢٨م) وثبتت صحة هذه النظرية بعدئذ باكتشاف جسيم البوزترون (الإلكترون الموجب) على لوح فوتوغرافي للأشعة الكونية في عام (١٩٣٢م) وعززت صحة هذا الاكتشاف عند العثور على نقيض البروتون والنيوترون بواسطة المعجلات النووية، ففي عام (١٩٦٥م) وضع الباحث السويدي (الفن) نظرية كونية تقوم على أساس نظرية الوجود المادي ونقيضه وتقوم على أن المادة الأولية للكون كانت في البدء مادة رقيقة جداً تتألف من البروتونات وأضداد البروتونات مع إلكترونات وأضدادها، وفي اللحظة التي بدأت فيها بالتجمع والتكاثف الجذبي، اصطدمت بعضها مع بعض ثم تلاشت وتحولت إلى طاقة عالية جداً بعدها قذفت في ضغط كبير فلم توقف عملية التكاثف الجذبي فقط. بل عملت على دفع المادة وتشتيتها في الفضاء وهو ما يعرف اليوم بالتمدد الكوني.

من خلال النظريات المنجزة على امتداد التاريخ الفلسفي والعلمي لكيفية نشوء الكون يتضح أن بعض النظريات تحتاج إلى أدلة علمية وفلسفية معززة للتحقق والاقتراب من حقيقة النشوء مع أن نظرية الانفجار الأعظم وما تحمله من حوادث علمية متسلسلة هي أقرب لصورة النشوء من بقية النظريات رغم ما تضمن النظريات الأخرى على حقائق علمية سليمة.

المبحث الثاني
أصل المنظومة الشمسية
(Origin of the Solar System)

إن الفرضيات التي وضعت حول أصل المنظومة الشمسية وكيفية تكوينها يجب أن تفسر الخواص العامة لها والحقائق الأساسية لحركة كواكبها. ولقد أظهرت القياسات أن أعمار كل من الشمس والأرض والقمر والنيازك متقاربة جداً، فمن دراسة النشاط الإشعاعي لصخور القشرة الأرضية، ظهر أن عمر أقدمها يبلغ (٣،٣) بليون سنة. وقد وجد أن أعمار المعادن الأرضية تبلغ حوالي (٤،٥) بليون سنة، وأن عمر العينات القمرية التي جلبها رواد الفضاء عام (١٩٦٩م) والنيازك التي تسقط على الأرض وجدت بأنها متقاربة مع عمر الأرض.

أما عمر الشمس فيتم حسابه بواسطة التركيب الكيميائي للشمس والطاقة الخارجة منها إضافة إلى استعمال نظريات التطور والتركيب النجمي. فلقد وجد أن عمرها يبلغ حوالي (٥) بليون سنة، وعلى أساس ذلك وجد أن عمر المنظومة الشمسية يتراوح بين (٥،٤-٥) بليون سنة، علاوة على الزخم الزاوي للشمس يبلغ حوالي (٢٪) من الزخم الزاوي الكلي للمنظومة الشمسية، أي أن غالبية الزخوم الزاوية تتوزع على الكواكب السيارة، فمثلاً المشتري وحده يملك حوالي (٦٠٪) من الزخم الزاوي الكلي، أما بالنسبة للتركيب الكيميائي لأفراد المنظومة الشمسية، فلقد وجد أن أغلب العناصر الموجودة في الشمس هي الهيدروجين والهليوم والتي تؤلف (٩٨٪) من كتلتها وأن الهيدروجين وحده يشكل (٨٠٪) من كتلة الشمس. يحتوي المشتري وزحل

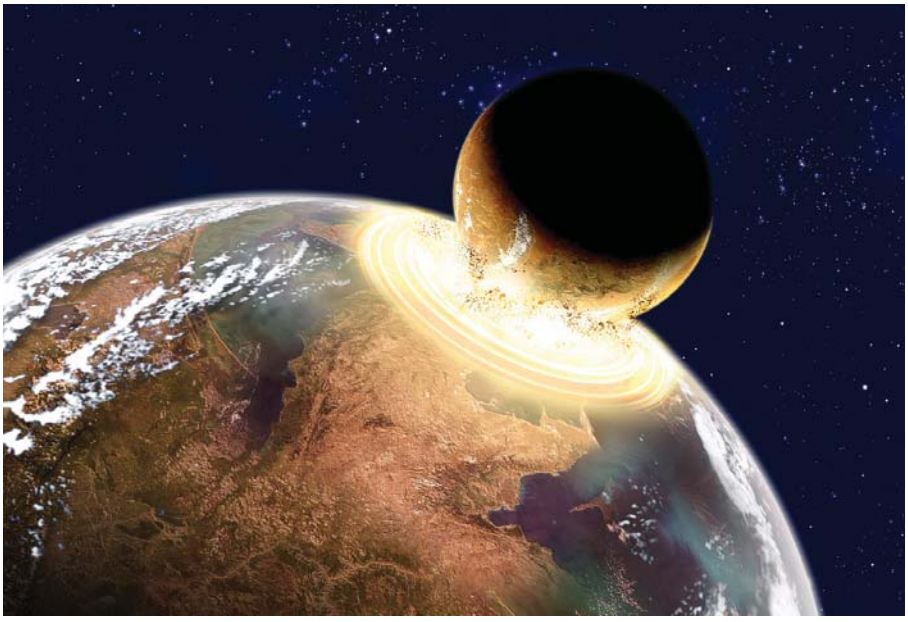

على عناصر مشابهة تقريباً وبكميات قليلة من نفس العناصر في أورانوس ونبتون. أما الأرض فإن النسبة المئوية للعناصر الثقيلة تكون أكبر من العناصر الأخرى وهي موجودة في النيازك وفي القمر أيضاً. وأن تركيب كل من المريخ والزهرة وعطارد يشبه تركيب الأرض بصورة مقاربة جداً.

نشوء النظام الشمسي

كان هذا الموضوع من المعضلات التي شغلت أذهان علماء الطبيعة والفلك منذ القرن السابع عشر حتى يومنا هذا، حاول البعض منهم على فترات مختلفة وضع الفرضيات لحل هذه المعضلة، وكل كان يقيم له حجة وبرهاناً لدعم فرضيته، إلا أن أكثرها لم تكن من الصلابة لتعيش طويلاً، هكذا عاشت نظريات لفترة من الزمن ثم بادت وخلفتها نظريات.

إن أية فرضية توضع لتفسير المنظومة الشمسية، يجب أن تنطبق عليها جميع الخواص التي تتصف بها المنظومة، وعلى كل حال، سنعرض ملخصاً لبعض الفرضيات المهمة:

١ـ فرضية ديكارتز (Decartes):

وضعت هذه الفرضية عام (١٦٤٤م) وقد كانت أول فرضية تفسر أصل المنظومة الشمسية وهو نشوؤها من السديم الغازي.

٢ـ فرضية بوفون (Buffon):

وضعت عام (١٧٥٠م) وقد نصت على أن الكواكب تكونت على أثر اصطدام مذنب بالشمس، ونتيجة لذلك انفصلت بعض الغازات من الشمس واستمرت تدور حولها وبعد أن انكمشت هذه الغازات كونت الكواكب ثم توابعها.

٣ـ نظرية الفيلسوف كانت (Cant) **(١٧٢٤ـ١٨٠٤)م:**

قدم هذه النظرية في كتابه التاريخ الطبيعي ونظرية الكون، وتتلخص بأن المجموعة الشمسية كانت تتألف في بادئ الأمر من أجرام صغيرة صلبة لا حصر لها تتناثر في أعماق الفضاء، ما لبثت أن تجمعت وتجاذبت وتصادمت مع بعضها البعض فتولد عن هذا التصادم حرارة كبيرة تحولت من جراء تلك الكتل المتجمعة إلى غازات، ثم تجمعت على هيئة سحب وأخذت تدور حول نفسها بسرعة عظيمة من الغرب إلى الشرق، ثم انطلقت منها غازات بفعل القوى الطاردة ما لبثت هي الأخرى أن تجمعت وتكاثفت وفقدت حرارتها من جراء سرعتها ثم تكور شكلها فتكونت منها أجرام كبيرة وصغيرة وهي السيارات المعروفة ثم أخذت تدور حول الجرم الكبير الذي انفصلت عنه بنفس اتجاه حركته.

٤ـ فرضية شامبرلن ومولتن (Chamberlain ،Molten):

في عام (١٩٠٠م) جرى تعديل على فرضية بوفون، حيث استبدل المذنب بنجم كبير الحجم، وفرض أنه اقترب من الشمس نتيجة لقوانين الجاذبية العامة، تولدت الكواكب حول الشمس بسبب انفصال الغازات من الشمس وبقيت تدور حولها وسميت بنظرية المد الغازي.

٥ـ فرضيـة جينـز وجيفـرز (Jeans-Jeffries) **(١٩٠١م):**

وهي تؤكد اقتراب نجم من الشمس ونتيجة للجاذبية العامة انفصلت الغازات من الشمس على شكل ألسنة نارية لامعة وبعد مدة من الزمن تكون قرص غازي يدور حول الشمس مكوناً الكواكب.

٦ـ نظرية شميدت (Shemdit)**:**

أخرج هذا الباحث الروسي نظرية حديثة عام (١٩٤٦م) عن نشوء الكواكب السيارة التي تقول: لقد حدث للشمس أثناء حركتها داخل نظام مجرتنا، أن مرت بسحابة كثيفة من الغازات والغبار الكوني فتشبعت بها واجتذبت قسماً كبيراً معها وهي ماضية في طريقها داخل المجرة، وما لبثت أن تجمعت هذه السحب حول الشمس بحكم جاذبيتها بشكل حلقة كثيفة وهي تدور بالاتجاه المعاكس لعقارب الساعة، ثم بدأت ذرات هذه السحب بالتجمع والتكاثف على بعضها ثم الانفصال حسب مقتضيات الظروف فشكلت كتلاً صغيرة أولاً بأول، ثم تجمعت في كتل أكبر حتى انتهت إلى تكوين هذه الكواكب.

٧ـ فرضيـة هنـري رسـل (Henry Russell)**:**

تنص هذه الفرضية على أن الشمس ربما كانت في أول الأمر نجماً في منظومة ثنائية تدور حول مركز ثقلها، وما لبث أن انفجر أحد النجمين مولداً الكواكب السيارة وتوابعها. وقد أكد على هذه الفرضية العالم (فريد هوبل) عام (١٩٤٦م) حيث بنى فرضيته على طبيعة انفجار نجوم المستعمرات العظمى (Supernova Explosion) وهو أن الشمس كانت في الأصل تمثل أحد أعضاء مركبة نجمية مزدوجة، لأن نصف السماء التي تقع تحت نطاق البصر هي أعضاء في النظام الزوجي، ومن سياق حديثه عن تكوين النجوم ونموها وتطورها تطرق إلى سحب الغازات الوافرة من الهيدروجين المنتشرة في هذا الفضاء الكوني الشاسع، وأن النجوم التي تمر من خلال هذه الغازات لابد أن تتشبع منها بحكم جاذبيتها فتزداد كتلتها وعندما تجمع بعض النجوم كمية كبيرة من هذه المادة وتصبح من الضخامة البالغة تضطر كتلتها الكبيرة إلى إحراق هيدروجينها بمعدل زائد فيزداد سطحها توهجاً وسطوعاً قد تصل إلى ألف مرة من توهج الشمس إلى أن ينفد هذا الوقود في حدود (٥٠) ألف مليون عام.

٧ـ الفرضيـة السـديمية (Nebular Hypothesis)**:**

تعد هذه الفرضية مقبولة الآن من قبل العديد من العلماء، وقد نشرها بصورة مستقلة الباحث الفرنسي لابلاس (Laplace)، وتنص على أن المنظومة الشمسية تكونت من سديم كبير مؤلف من الغازات والأتربة وحجمه أكبر من حجم المنظومة الشمسية الحالية بعدد من المرات، إذ كان السديم في أول الأمر بدرجة حرارية واطئة، ويدور حول مركزه بسرعة بطيئة، وبالتدرج بدأ بالانكماش والتقلص تحت تأثير قوى جذبه الذاتي، واستناداً إلى قانون

حفظ الزخم الزاوي، فإن السرعة تزداد عندما يقل نصف قطره نتيجة لانكماشه وتقلصه. وهكذا فكلما زادت السرعة يصبح السديم أكثر تفلطحاً أي يقرب شكله من شكل القرص بفعل القوة المركزية. ويستمر في الانكماش إلى أن تختل قوة التماسك بين جزيئاته فتتغلب القوة المركزية على أجزائه إلى أن تنفصل حلقات كاملة من المادة من المناطق الخارجية للسديم الذي يستمر بالانكماش وتبدأ جزيئات هذه الحلقات بالتكثف بفعل الجاذبية العامة، وبمرور الزمن تكونت الكواكب التي تدور حول السديم المركزي الذي هو الشمس وبنفس الطريقة تكونت التوابع حول كواكبها.

إن فرضية السديم الغازي مقبولة الآن في تفسير وتكوين النجوم من الغازات والأتربة السائبة في فضاء ما بين النجوم، حيث تبدأ هذه الغازات والأتربة بالانكماش والتقلص وتزداد درجة حرارتها المركزية إلى أن تبدأ عمليات التفاعل النووي، وبذلك تحصل عمليات الانبعاث الحراري والضوئي من النجم أو الشمس وهي التي تجعل الزخم الزاوي بصورة عامة يتمركز في الكواكب أكثر من الشمس ■

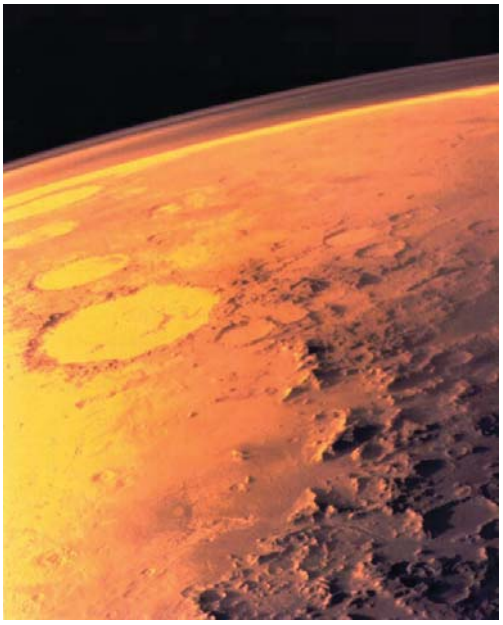

المصادر

(١) فيزياء الجو والفضاء والفلك، د. فياض النجم، د. حميد مجول النعيمي، بغداد ج٢، ١٩٨٥.

(٢) الموسوعة الفلكية المبسطة، د. ميخائيل عبد الأحد، ١٩٧٧.

(٣) التفسير الكبير، الفخر الرازي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥.

(٤) التكامل في الإسلام، أحمد أمين، دار المعرفة، بيروت، ج١-٥.

(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، دار الجيل، ١٣٢٩.

(٦) شهادة الكون، عبد الودود رشيد محمد، ط١، بغداد، ١٩٩٠.

(٧) الكشاف، الزمخشري، دار المعرفة، بيروت.

(٨) القرآن والعلم، أحمد محمد سليمان، دار العودة، بيروت، ١٩٧٨.

(٩) ملامح كونية في القرآن، شاكر عبد الجبار، ط١، بغداد، ١٩٨٥.

(١٠) الكون والقرآن في علم الفلك، محمد علي حسن، ط٣، بغداد، ١٩٧٨.

(١١) اينشتاين والنظرية النسبية، محمد عبد الرحمن مرحبا، النهضة، بغداد، ١٩٨٤.

(١٢) الطبيعة في القرآن الكريم، كاصد ياسر الزيادي، سلسلة دراسات (٢٣٦) العراق، ١٩٨٠.

(١٣) القرآن محاولة لفهم عصري، مصطفى محمود، دار المعارف، مصر، ١٩٧٦.

الحلقة الثانية:

الزهد والإسراف في البنيان

د. علي ثويني •
معمار وباحث/ مملكة السويد

الزهد والحداثة المعمارية:

ينابيع

وفي استيضاح الصفات الزاهدة المنعكسة في مرآة العمارة، نجد أجلى صورها في البساطة والمباشرة التي تضطلع بموقع الجوهر والدستور. وولوجاً إلى معرفة صفة البساطة والتبسيط الذي كان إحدى الثوابت الأساسية في عمارة المسلمين وحاد يوماً عنها السلاطين وحافظت على ديمومتها العمارة الشعبية والذي اكسبها صفة (الثابت الثقافي) بسبب الاتجاه المباشر لهدف العمارة المتمثل في وظيفية و(مباشرية) نحو الهدف إلى الفضاء المعماري المستخدم، ومثالنا الأجدر في ذلك المسجد الذي جاء ليحقق وظيفة روحية وثقافية واجتماعية البسها المسلمون ببناء يفي بالحاجة ولم تعر أي أهمية لكيفية ما ستكون عليه هيئتها الخارجية.

وفي تقصي كنه البساطة من الناحية الفلسفية والعملية التي ظهرت في العمارة الخارجية والداخلية الإسلامية. نجد أن ممارسة (الاختزال) الوارد في العمارة الحديثة، لم تكن تعني بأي حال من الأحوال الاختزال لذلك الفضاء في جوانبه الكمية المجردة، بل تشتمل على مجمل الأحاسيس والانطباعات

التي تتولد عن حالة التكامل المتزن بين عناصر البنية الكلية لذلك الفضاء، الذي يخدم الحياة الاجتماعية الإسلامية. ويكون ذلك انعكاسا لقوله تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)[1]. وهذا هو الميزان والمقاس بين التبذير والتقتير الذي أنعكس كمبدأ من مبادئ العمارة، السارية في كل مكان وزمان.

إن الوصول إلى نقطة التوازن هذه والتوقف عندها في نتاجات العمارة والفنون والآداب هي من سجايا البراعة والإبداع والتحكم الرفيع في الإيقاع والتأثير على أحاسيس المتلقي للفعل الإبداعي وان تحقيق ذلك التوازن بين طرفي المعادلة (الأكثر أو الأقل) من اعقد التحديات التي تجابه المعماري أو الفنان أو الأديب. وأسلوب البساطة أو السهولة في هذا الإطار المتوازن لا يعني الرخص أو الوفر، سهل المنال في العملية التصميمية. والمبنى البسيط في شكله يكون نتيجة دراسة طويلة وليست اعتباطية متسرعة. وتتأتى البساطة هنا من تأثيره على استعمال وتنظيم حياة مستعمليه، وتأثيره على تسهيل فهمه وإدراكه بالنظر. كما هو الخطاب الإسلامي العام الذي ورد سهل الفهم والإفهام ويعتمد على آليات بسيطة في شرحه.

والتبسيط عملية فحص وتجريد واختزال لكل ما هو زائد وكل مال ليس له ضرورة وأساسا من التواجد، وما يعتبر عبئا على كفاءة المبنى. وهذه العملية لا تظهر للرائي العادي، ولا

صورة قديمة لمسجد قباء

مسجد البيعة في منى

يدركها إلا الخبير المتفقه، واسع الأفق، ويتميز بكونه مرهفا لإدراك الجمال من (النوع الفكري)، المحسوس، وليس من النوع الملموس المدرك بالحواس. أما صيغة التبسيط الواردة في تيار (العمارة العالمية) المعاصر فهو ليس إلا إتباع لقواعد واستخدام لأشكال تم تبسيطها وأصبحت ممكنة الاستعمال ذات ثلاثة أبعاد كأنها تماثيل أو ثنائية الأبعاد كأنها لوحات فنية[٢].

وفي السياق الجمالي نجد أن للجمال ثلاث صيغ إحداها حسي بما تلمسه الحواس وجمال عاطفي يتعلق بالذكريات، وسالف الصلات، وجمال فكري وهو يتكرس بعد مراحل كبيرة من التقدم والرقي العقلي والثقافي. ويدعى كذلك (الجمال التجريدي) وهو أقرب أنواع الجمال إلى النوع (الوظيفي) التي وجدت لها تيارا عريضا في عمارة القرن العشرين. ويتداخل ذلك الجمال مع مفهوم (المتقشفون) في العمارة، وهم المتمسكون بوجهة النظر الفكرية وحدها ويسقطونها عادة على الاعتبارات الأخرى غير الفكرية، ويخرجها من الموضوع. وهذا الجنوح إلى الجمال لا يتواجد في ذهن المتفرج السلبي (passive)، ولا يتكشف لذوي العقل العلمي المحض، وبذلك يكون الإعجاب بالشيء وحده ولذاته وكنهاية في حد ذاته إعجابا تجريديا منزها من الغرض والفائدة، أي مبرر أخر، وبذلك يتضمن الشكل لدى عشاق هذا الجمال درجة من السمو النوعي ويترادف الشكل مع الجمال نفسه[٣].

وقد أدى التعلق بهذا النوع من الجمال (الزاهد) إلى مشاكل فلسفية في الحضارات المادية، ومنها الحضارة المعاصرة، عندما وضعت مبادئ جامدة في النسب والتناظر والانسجام الشكلي وغيرها من المبادئ التصميمية في العمارة، أرادوا أن يفرضوها على أذواق الناس. ثم تصاعد ذلك إلى حالة من اليأس من الموضوع بمجمله، الذي أعتبر الجمال مسألة فردية محضة. وهكذا

خالفوا موضوع (الجمال الزاهد) الذي أتى به الفكر الروحاني في الإسلام، الذي ربط الجمال بصانعه ولم يحدد له أشكال قسرية بعينها. وبذلك وجد حلا لذلك اللغط القائم بين مرامي كل من المعماريين الأكاديميين الذين يسعون لمقاييس ثابتة وشاملة والفلاسفة اللذين يبحثون عن الحق المطلق والعلميين الذين يريدون ترتيب الأشياء عقليا حتى يتم استيعابها والإلمام بها كلية، في الذهن والذاكرة.

ولهذا المستوى الرفيع من الشعور بالجمال ومفهوم البساطة نجد في أيامنا هذه صدى في نفوس جل التيارات الفنية والمعمارية الحديثة، والتي كانت رائديتها تعود إلى العمارة الإسلامية الأولى. وهذا يرجعنا إلى التمحيص في كنه العمارة، مستعينين بالتعريف الذي ذكره الدكتور عرفان سامي عن العمارة بأنها: (الفن العلمي لإقامة أبنية تتوفر فيها عناصر المتانة والمنفعة والاقتصاد وتفي حاجات الناس المادية والنفسية والروحية في حدود أوسع الإمكانيات وبأحسن الوسائل المتوفرة في العصر التي تكون فيه). وهذا ما يطابق المنهج الذي اتخذته عمارة المسلمين.

ومنذ بداية القرن وبظهور التيارات المعمارية العالمية في القرن العشرين حيث نجد تيار (النقائيين Purists) قد أثرت في العمارة الأوربية. وانبرى من هذا التيار المعمار (أدولف لوس)[٤]، ناقدا حالة الزخرف في العمائر وذلك عام ١٩٠٨م خلال مقال كتبه تحت عنوان (الزخرف والجريمة)، وتطرف في أحكامه حيث أعتبر الزخرف من علامات الهمجية أو التردي الآثم، أو متنفسا للكبت[٥]. وبعد أن هذبت تلك الفكرة المتطرفة في أحكامها، حيث ظهرت في مدرستين منها وهي مدرسة المعمار (ليكوربوزييه)[٦] و(ميس فان دروه)[٧] اللتين أخذتا شوطا كبيرا في هوى رهط واسع من المعماريين في العالم وجوهرهما يكرس الاختزال والتقشف في المفردات المعمارية والذي يضيف إليه غنى كما قال ليكوربوزييه (Less is more) بالرغم من أن بعض المعماريين قد وسموا هذا المنحى الاختزالي الذي يولد السأم (Less is bore) كما قال فنتوري، وهو من رواد (ما بعد الحداثة). ويقول ليكوربوزييه في ذلك: (تتولد العاطفة من النظام التشكيلي الذي ينشر تأثيره على كل جزء من أجزاء التكوين... من الوحدة في الفكرة تمتد من وحدة المواد المستعملة إلى وحدة خطوط التسوية العامة... من الوحدة في الهدف... من ذلك العزم الذي لا يتزعزع للوصول إلى غاية النقاء وغاية الوضوح وغاية الاقتصاد).

ويمكن هنا رصد الفرق بين الزهد الإسلامي في العمارة والزهد الذي دعا له بعض رواد عمارة القرن العشرين بأن الثاني جاء مقتصرا على الزخرفية في العمارة والدعوة إلى النزعة (الاختزالية)، دون المساس بالجانب الصرحي والمبالغات في الفضاءات والبذخ في مواد المواد والبهرج والإثارة في عناصرها، مما يجعل هذا الزهد ناقصا أو شكلا دون محتوى أو ظاهرا دون باطنا. وهو ما يخالف الزهد الإسلامي الذي دعا إلى (شمولية

زاهـدة)، في مجـالات الحيـاة والعمارة التـي كانت على العمـوم الصورة التي تعكس إيقاعها.

إن إدراك المفهومين ـ الاقتصـاد والتبذيـر ـ المتناقضين يلتقيان في نقطة ذروة يتحقـق عندها الكمال والتجاوب بيـن المكونات وعند هذه النقطة يجب أن تتوقـف الإضافـة إذ عندهـا تتحقـق أسمى درجات الغنى والثراء علي صعيد الوظيفة أو الشكل. وهذا ما يتجلى في كثير من الأعمال العمرانية والمعمارية العربيـة. ولدينـا فـي عمـارة الصحراء الضاربـة، ونموذجيتها في عمارة مدائن وادي (مـزاب) في الصحراء الجزائرية، مـن جذورها القديمة، التي اسـتطاعت أن تحافظ على بسـاطتها من التأثيرات الخارجية بسـبب انعزالها والتي أحدثت اكبر الأثر في نفوس معماريي (البساطة) ومنهـم ليكوربوزييـه الـذي نهـل مـن عمارتها الشـيء الكثير. وهذا للأسف لـم يمس مشـاعر معمارييـنا المحدثين الذين حاكوا الجانب الصرحي للعمارة متأثريـن بعمارة الغـرب ومنبهرين بها، وبالرغـم مـن وجـود بعض المـدارس العالميـة الداعيـة إلـى عكـس ذلـك كما هو حاصل في فكـر المعماريين الفنلنديين والمدرسـة الاسـكندينافية مثل (الفار آلتو)[٨] الذين رسـموا خطهم البسيط المتواضع المتناغم مع الخطاب الأخلاقـي العمومـي والعقليـة الشـعبية دون الإفـراط في العاطفـة إليها، والتي مازالـت رافضة لعمـارة البـذخ. وتوجه جـل اهتمامهـم لتطوير نوعيـة وكفاءة مـواد البنـاء وتكنولوجيـا البنـاء الذي يوفر السرعة والسـهولة والاقتصاد في التنفيـذ. وقد وجهـت انتقادات شـعبية حـادة لمركـز التجـارة العالمـي فـي مركـز مدينـة سـتوكهولم عاصمـة السـويد وكان ممـا رددوه العامـة في ذلـك بأنها (هنا السـويد وليـس الخليج العربـي)... إنهـا لحقاً مفارقة تسـتأهل التوقف عندهـا والمعاينة، فيخال المرء فيهـا أن البسـاطة الـواردة فـي جوهـر الإسـلام ومنهجه الأخلاقي وعمارته قد ظهـرت هنا وليس من بؤرتـه المحمدية في الجزيرة العربية ■

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٥.

(٢) د.عرفـان سـامي، نظريـة الوظيفيـة فـي العمارة، القاهرة ١٩٦١م، ص٦٤.

(٣) د.عرفـان سـامي، نظريـة الوظيفيـة فـي العمارة، القاهرة ١٩٦١م، ص١١.

(٤) Loos Adolf ، (١٨٧٠م -١٩٣٣م) معمـار ومخطط مدن ومنظر نمساوي.

(٥) ليكوربوزييـه، معمـار فرنسـي من أصول سويسـرية (١٨٨٧م-١٩٦٥م)، لديـه كثير مـن النظريـات الرائدة فـي عمـارة القرن العشرين.

(٦) رينر بانهام، عصر أساطين العمارة، ترجمة سـعاد عبـد علـي مهـدي، بغـداد ١٩٨٩م، ص٥٨.

(٧) ميـس فـان درروه (Mies Van Der Rohe)، معمـار أمريكـي ألمانـي الأصل (١٨٨٦م-١٩٦٩م) درس فـي الباوهاوس ثم كرس فكرهـا بعد هجرته إلـى أمريكا قبيـل الحـرب الثانية، وأهم مـا ميزه نزعته التبسيطية والزاهدة في العمارة.

(٨) الفـار آلتـو (Aalto Alvar) (كورتـان ١٨٩٨م- هلسـنكي ١٩٧٦م)، معمـار ومخطط مـدن ومصمم فنلنـدي، ذا منحى وظيفـي مـن النـوع العضـوي. أسـتطاع أن يؤثر في الفكر المعماري ، ولاسيما لدول الشمال الأسكندنافي.

أجوبة مسابقة العدد (١٦) وأسماء الفائزين

السؤال الأول: ج. أنس بن الحارث الكاهلي

السؤال الثاني: أ. ١٢

السؤال الثالث: أ. السيد رضا الهندي

السؤال الرابع: ج. قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية

السؤال الخامس: ب. ٣ شعبان

السؤال السادس: ب. القادسية

السؤال السابع: أ. بشر بن عمرو الحضرمي

السؤال الثامن: أ. اليمن

السؤال التاسع: ب. العقر

الفائزة بالجائزة الأولى: أم حسين محمد عبد الخضر/ البصرة ـ شط العرب.

الفائز بالجائزة الثانية: فلاح داخل مشكور/ النجف الأشرف ـ حي الأنصار.

الفائز بالجائزة الثالثة: مشتاق طالب كريم/ كربلاء المقدسة ـ باب الطاق.

على الفائزين مراجعة مقر المؤسسة لاستلام جوائزهم

مسابقة العدد (١٨)

١ الناعم، القموص، الكتيبة، الشق، النطاة، الوطيح، السلالم. سبعة حصون محكمة كانت لليهود وقد فتحها أمير المؤمنين علي عليه السلام، يجمع هذه الحصون حصن واحد، فما اسمه؟

أ ـ حصن خيبر

ب ـ حصن بني النضير

ج ـ حصن الأخيضر

٢ من الأدعية التي يستحب المواظبة عليها خصوصاً في الأعياد الأربعة، الفطر والأضحى والغدير والجمعة. فما اسمه؟

أ ـ دعاء السمات

ب ـ دعاء الندبة

ج ـ دعاء التوسل

٣ لما توفي الحسين بن الحجاج النيلي أوصى بأن يدفن عن رجلي الإمامين الكاظمين عليهما السلام، وأوصى أن يكتب على قبره آية قرآنية فما هي تلك الآية؟

أ ـ ﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾

ب ـ ﴿ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾

ج ـ ﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾

٤ **يصاب الفتى من عثرة .....**
وليس يصاب المرء من عثرة الرجل

بيت شعري لابن السكيت، يعقوب بن إسحاق الذي قتله المتوكل سنة ٢٤٤هـ لدفاعه عن الحسن والحسين عليهما السلام، فما تكملة صدر البيت؟

أ ـ ببيانه

ب ـ بلسانه

ج ـ بكلامه

كوبون مسابقة

ينابيع

العدد (١٨) جمادى١ ـ جمادى٢ ١٤٢٨هـ

	أ	ب	ج
جواب السؤال الأول			
جواب السؤال الثاني			
جواب السؤال الثالث			
جواب السؤال الرابع			

٥ دعاه رسول الله ﷺ بصديق الأمة، وشبهه بزهد عيسى، توفي سنة ٣١ أو ٣٢هـ في أرض غربة، حضره عند وفاته مالك الأشتر فصلى عليه، فمن يكون؟

أ ـ بلال بن رباح

ب ـ أبو ذر الغفاري

ج ـ سلمان الفارسي

٦ بيت الله الحرام، تهفو إليه نفوس المسلمين، وأوجب الله تعالى حجّه على من تيسر له النفقة، عرف بأسماء عدّة، منها البيت العتيق. فما معنى العتيق؟

أ ـ القديم

ب ـ يعتق من طاف به من النار

ج ـ أعتق من الغرق

٧ الشيخ أحمد الأردبيلي، المعروف بالمقدس، برز كواحد من فقهاء النجف ومراجع الدين، وله كتاب (مجمع الفائدة والبرهان في إرشاد الأذهان) فمتى توفي وأين دفن؟

أ ـ ٩٩٣ هـ، الروضة الحيدرية

ب ـ ٩٩٨ هـ، جامع الطوسي

ج ـ ١٠٠١ هـ، وادي السلام

٨ الأبدال قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم، إذا مات واحد أبدل الله مكانه آخر. كم يبلغ عددهم؟

أ ـ ٧٠

ب ـ ٦٠

ج ـ ٥٠

٩ كفى بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة. من روائع الأقوال لإمام من أئمة أهل البيت عليهم السلام، فمن هو؟

أ ـ الإمام الجواد عليه السلام

ب ـ الإمام الهادي عليه السلام

ج ـ الإمام العسكري عليه السلام

	أ	ب	ج
جواب السؤال الخامس			
جواب السؤال السادس			
جواب السؤال السابع			
جواب السؤال الثامن			
جواب السؤال التاسع			

جوائز المسابقة

الجائزة الأولى: ٧٥،٠٠٠ دينار.
الجائزة الثانية: ٥٠،٠٠٠ دينار.
الجائزة الثالثة: ٢٥،٠٠٠ دينار.
يتعين الفائز بعد إجراء القرعة.

شروط المسابقة

* **الإجابة عن ثمانية أسئلة فقط.**
* **يوضع الكوبون في ظرف ويكتب عليه (مسابقة مجلة ينابيع) مع الاسم الثلاثي والعنوان الكامل ورقم الهاتف بوضوح ويرسل على عنوان المؤسسة.**
* **آخر موعد لاستلام الأجوبة هو ١/شعبان/١٤٢٨هـ.**